يهود الدونمة

وأسرار الانقلاب العثماني

كتبه بالتركية

مصطفى طوران

ترجمه

كمال خوجة

قدم له

د. عبد الله ناصح علوان



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



كتبه بالتركية
مصطفى طوران

ترجمه
كمال خوجة

قدم له
د. عبد الله ناصح علوان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
بالمقاس الجديد
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

طوران ، مصطفي .
يهود الدونمة وأسرار الانقلاب العثماني / كتبه بالتركية مصطفي طوران ؛ ترجمه كمال خوجة ؛ مقدم له عبد الله ناصح علوان . - ط ١ - . القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢م .
١٩٢ ص ؛ ١٧ سم .
تدمك ٥ ٠٢٧ ٢١٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - اليهود - تاريخ .
٢ - الإمبراطورية العثمانية - عصر الضعف .
٣ - الإمبراطورية العثمانية - سقوط .
أ - خوجة ، كمال (مترجم) .
ب - علوان ، عبد الله ناصح (مقدم) .
جـ - العنوان .
٩٥٦,٩٠٣



للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

تقديم ٧

مقدمة ١٣

مؤسس الدونمة ١٥

- المسيح المنتظر ١٥
- ادعاء النبوة ١٦
- بيان من المسيح الموعود ١٨
- رحلات المسيح ١٨
- الزواج الموعود ١٩
- نجاح الدعوة ٢٠
- اعتقال المسيح ٢١
- ظهور مسيح جديد ٢٢
- معجزة المسيح ٢٣
- المسيح يعلن إسلامه ٢٣

- سباتاى الجديد ٢٦
- المذهب الجديد ٢٧
- موت المسيح المزيف ٢٩
- ما بعد سباتاي ٢٩
انقسام الدونمة إلى فرق ٣١
١ - اليعقوبيون ٣٢
٢ - القره قاشيون ٣٢
٣ - حزب إبراهيم آغا ٣٣
النظام الداخلي ٣٥
وليمة الخروف ٣٦
بعض الإفشاءات ٣٩
دعاء الدونمة ٤١
الرجوع إلى اليهودية ٤٣
العادات الحية عند السباتائيين ٤٤
الدونمة والأمة والواحدة ٤٨
- يد اللّه مع الجماعة ٤٨

- الدونمة والجامعة ٥٢
- الدونمة وحجاب المرأة المسلمة ٥٤
عرس على طريق الدونمة والاتحاديون ٥٦
الدونمة (الرجعيون) بقلم معتنقيها ٦٤
١ - المقال الأول ٦٦
٢ - المقال الثاني ٦٩
٣ - المقال الثالث ٧٣
٤ - المقال الرابع ٧٧
- مسألة الزواج لدى السباتائيين ٨٣
- مسألة القبور عندهم ٨٤
- التنظيم الجماعي للسباتائيين ٨٥
الاتحاديون والدونمة ٨٦
- الاتحاديون وآل أيبكجي ٨٧
- اتحادي بين الدونمة ٨٩
- الدونمة يعشقون الحرية ٨٩
- وضع الدونمة التعليمي ٩٢

خاتمة ٩٤

أسرار الانقلاب العثماني ٩٧

السلطان عبد الحميد الثاني ١٢٤

عبد الحميد والعرب ١٢٩

عبد الحميد والأكراد ١٣١

عبد الحميد والأرمن ١٣٢

عبد الحميد واليهود ١٣٤

من الاستبداد إلى الحرية ١٣٦

العفو العام ١٤٣

مجلس المبعوثان ١٥٣

كيف بدأت مأساة ٣١ آذار؟ ١٦٢

خلع السلطان عبد الحميد ١٨٣

* * *
* *
*

تَقْدِيم (١)

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فمن المعلوم يقينًا لدى أهل الوعي والبصيرة أن أعداء الإسلام من يهودية ماكرة، وصليبية حاقدة، وشيوعية ملحدة متغطرسة، واستعمارية لئيمة متسلطة.. لما وجدوا في الإسلام مبادئ تتميز بالربانية والعالمية، وتتصف بالخلود والتجدد.. وتحمل في طبيعتها خصائص شمولها ونموها وامتدادها..

ولما وجدوا في المسلمين قوةً لا تقهر، وعزيمةً لا تليَّن، وجهادًا لا ينقطع، وفتوحًا لا تتوقف.. ولما وجدوا الخلافة الإسلامية تجمع المسلمين تحت قيادة واحدة وتجعلهم أمة واحدةً، وتدفعهم نحو غاية واحدة.. لمّا وجدوا هذا كله

---

(١) هذا التقديم شامل لجزأي الكتاب؛ حيث إن الكتاب في أصله كان كتابين، وقد تم دمجهما في كتاب واحد نظرًا لما رأيناه من تكامل بين الموضوعين. [الناشر].

جمعوا جموعهم، وأحكموا أمرهم، ووضعوا مخططاتهم، وعقدوا مؤتمراتهم، واتخذوا مقرراتهم.. لأجل أن يضربوا المسلمين ضربة قاصمة، تتمزق بعدها وحدتهم، ويتهدم كيانهم، ويفقدون في العالمين عزتهم وكرامتهم، ويتقلص في الأرض ظلهم وامتدادهم..

قد التقت اليهودية والاستعمارية والصليبية في صف واحد، لتكون الضربة للمسلمين أقوى، والتهديم لكيانهم أعظم.. وقد اختاروا لتنفيذ هذه المهمة في حرب الإسلام والمسلمين عميلهم الخائن، وربيبهم المجرم اليهودي « كمال أتاتورك »، وساعده في هذه المهمة الإجرامية « عصمت إينونو »، وأعضاء جمعية الترقي.. فهم الذين قاموا على تنفيذ هذه الجريمة النكراء، وهم الذين فرضوا على مجلس الأمة التركي عام ١٩٢٤ اتخاذ القرار بإلغاء الخلافة الإسلامية وإعلان علمانية الدولة، وإبعاد التشريع الإسلامي عن واقع الحياة، وذلك بإلغاء المحاكم الشرعية، والمدارس الدينية، والأوقاف، وأحكام الميراث، وجعل الأذان باللغة التركية، وإحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية، والعطلة يوم الأحد محل يوم الجمعة، وتغيير الأزياء

الإسلامية بالقبعة الأجنبية واللباس الإفرنجي.. وانتهى ذلك كله عام ١٩٢٨.

وعلى أعقاب هذه التغييرات الجذرية اعترف الإنكليز ودول الحلفاء باستقلال تركيا، وباركوا جهود أتاتورك في إلغاء الخلافة، وعلمنة الدولة، ومحاربة الإسلام.. وكان من نتيجة إلغاء الخلافة أن انقسمت البلاد الإسلامية إلى دويلات، وحل عليها الضعف والوهن، وأصبحت ألعوبةً بيد الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا.. واستطاعت الماسونية العالمية التي تديرها اليهودية أن تلعب دورًا كبيرًا في اجتذاب أصحاب الغِنَى والنفوذ والجاه.. فاصطنعت منهم حكامًا عملاء يأتمرون بأمرها، وينفذون مخططاتها بأساليب متنوعة، وشعارات مطروحة متجددة باسم الوطنية حينًا، وباسم التقدمية أحيانًا، وباسم القومية تارة، وباسم الاشتراكية تارة أخرى.. إلى غير ذلك من هذه الشعارات التي ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب، والتي تستهدف تحويل الجيل المسلم نحو الإلحاد والإباحية.

وقد تضافرت في هذا العصر قوى خارجية وداخلية..

عالمية ومحلية.. شيوعية ورأسمالية.. يهودية واستعمارية.. تعمل ليل نهار لأجل هدف واحد، وغاية واحدة ألا وهي هدم العقيدة الإسلامية من النفوس، وطمس معالم الإسلام من الأرض، وتنفيذ مخططات اليهودية التي تتجسد في الشعار المثبت على واجهة البرلمان الإسرائيلي: « حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل ».

وصدق اللَّه العظيم القائل في محكم تنزيله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فحري بالمسلم أن يكون على اطلاع تام على كل مؤامرة حاكها الأعداء في الظلام للتشكيك بصلاحية الإسلام، وتمزيق وحدة المسلمين، واستئصال تحركهم في كل مكان..

وإن من ثمرات هذا الاطلاع: كشف هذه المؤامرات التي يحيكها أعداء الإسلام لطمس معالم الإسلام، وتحويل الجيل المؤمن إلى جيل منحل مائع ملحد لا ينهض بواجب، ولا يسعى إلى غاية، ولا يضطلع بمسؤولية.

وإن من ثمراته كذلك: السعي الدائم لإحباط هذه المؤامرات، وإظهارها للناس، وفضح كل خطة ينتهجها أعداء

اللَّه للنيل من شريعة الإسلام، وزعزعة عقيدة المسلمين..

وإن من ثمراته أيضًا: استنهاض الهمم المتينة، واستثارة العزائم القوية.. لاستعادة مجد الإسلام والمسلمين تحت لواء الخلافة الراشدة، وتحت راية المبادئ الإسلامية الهادية.. وما ذلك على اللَّه بعزيز.

وإن كتاب « يهود الدونمة وأسرار الانقلاب العثماني » لمؤلفه « مصطفى طوران » هو من جملة الكتب التي تكشف لجيلنا المؤمن عن مؤامرات اليهود والحلفاء والعملاء بالتآمر على الأمة الإسلامية، وخصوصًا تآمرهم على السلطان عبد الحميد الخليفة المظلوم.. بالإطاحة بالخلافة العثمانية، وبإقامة دولة إسرائيل في حِمَى مهد عيسى، ومَسْرَى محمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم.

وختامًا أُهيب بجيلنا المسلم أن ينهلوا دائمًا من معين الثقافة الإسلامية، وأن يحيطوا بمؤامرات أعداء الإسلام.. حتى إذا استوعبوها، وأحاطوا بها، وعرفوا حقيقتها.. نهضوا بالإسلام بناءً وتشييدًا، ونادوْا بمبادئه منهاجًا وتحكيمًا، وحملوا لواء الدعوة الإسلامية عزمًا وتصميمًا، وعادوا خير أمة أخرجت للناس..

سدد اللَّه الخُطى، وأكثر من العاملين المخلصين، وهيأ لأمة الإسلام من يقودها إلى العز والنصر؛ إنه أكرم مأمول وبالإجابة جدير.

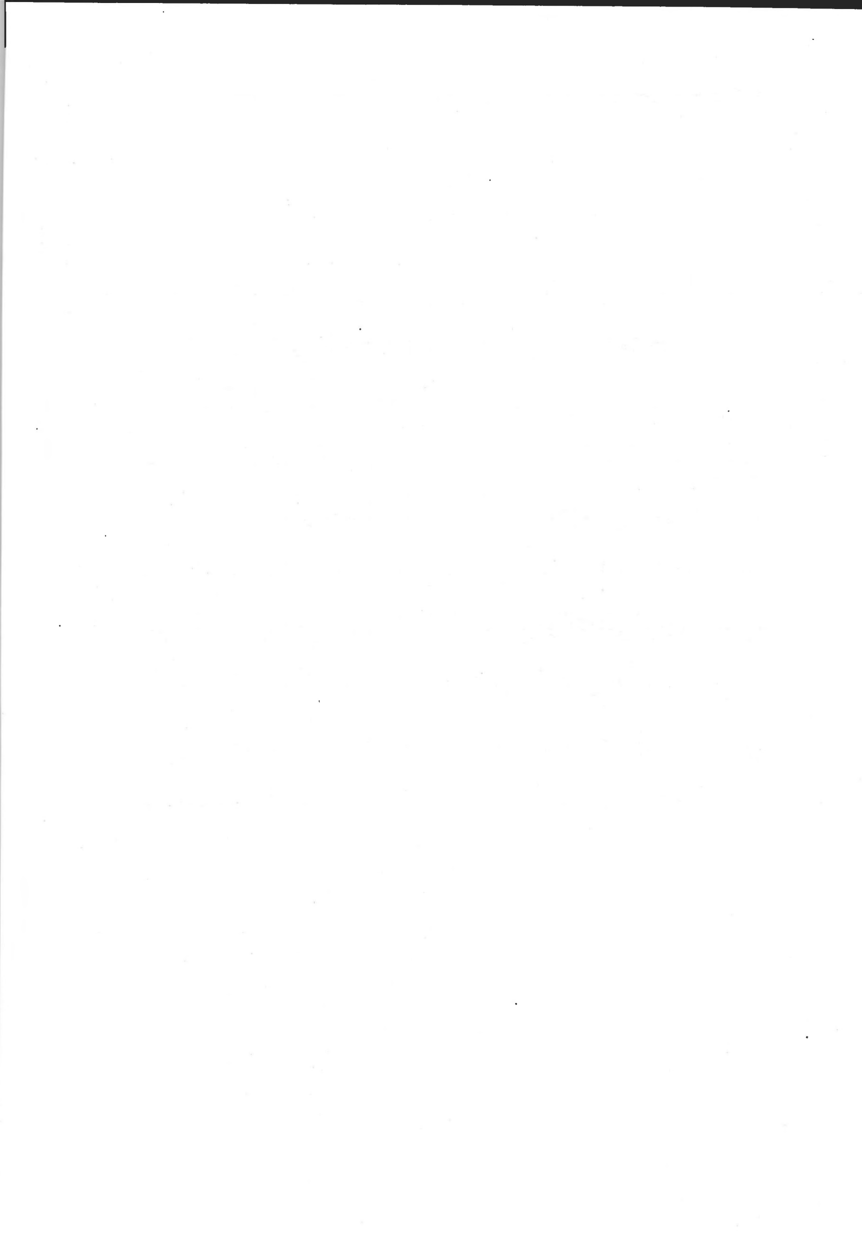
د. عبدالله ناصح علوان

مُقَـدِّمَة

الدونمة: كلمة تركية تعني العودة أو الرجوع، وقد أُطلقت هذه الكلمة على فئة من الناس سكنوا في المناطق القريبة من المملكة العثمانية، ولعبوا دورًا مهمًّا ورئيسًا في إضعاف هذه الامبراطورية، وزاد نشاطُهم بعد الانقلاب العثماني عام ١٩٠٩ الذي تحقق على أيدي الاتحاديين حتى دخلت تركيا الحرب العامة ثم اشتركوا في تأسيس الدولة العلمانية التركية وبرعوا في المجال الاقتصادي والثقافي والصحفي، ولا يزالون يتحكمون في صحافة تركيا حتى الآن.

وسنبحث أولًا في أصل الدونمة ومؤسسهم ثم ندخل في مذاهبهم وعقائدهم وتطوراتها وأوضاعهم في هذا العصر.

* * *
* *
*



مؤسس الدونمة

للدونمة اسمان آخران الرجوعيون أو السباتائيون نسبةً إلى سباتاي سيفي الذي أنشأ هذا الدين أو إن شئت هذا المذهب.

ولد سباتاي سيفي في تموز عام ١٦٢٦ بأزمير من أبوين يهوديين من أصل أسباني، قدم أبوه مورداخاي سيفي المعروف بين الأتراك باسم « مفتش الأسود » إلى أزمير من موره، وسباتاي هذا هو أصغر الأبناء الثلاثة لوالده، شغف منذ الصغر بمطالعة الكتب الدينية، لذلك صار يتردد على دروس الحاخام إسحق دالبا ولمّا يبلغ بعدُ الخامسة عشرة من عمره.

قرأ سباتاي التوراة والتلمود وبرع في التفسير الإشاري، كان ذكيًّا مثقفًا وسيمًا وجميلًا.

المسيح المنتظر:

« المسيح » كلمة عبرانية معناها: المطهِّر، وقد أُطلق هذا الاسم على المنقذ الذي يرسله اللّه لإنقاذ بني إسرائيل.

وعندما أُرسل عيسى عليه السلام آمن به فئة من بني إسرائيل (النصـارى الأُوَل)، وبقي الآخرون ينتظرون. وعلى مدى العصور ادعى كثير من الناس النبوة والمسيحية.

وفي القرن السابع عشر وخلال الصراع المذهبي في أوربا تعرض اليهود لمختلف أنواع الظلم، ولخطر الزوال الجماعي من قبل محاكم التفتيش التي شكلتها الكنيسة الكاثوليكية. وأصبح يهود العالم في وضع سيئ جدًّا ولم يبق لهم أمل بالبقاء سوى أن يأتي المسيح لإنقاذهم. أما الكهنة فقالوا: إن المسيح سيظهر عام ١٦٤٨م حتى إن مِنَ النصارى من بات يؤمن بأن عام ١٦٦٦ هو عام المسيح المنتظر.

ادعاء النبوة:

وإزاء هذه الظروف والمصادفات السانحة كان على سباتاي وهو الرجل الذكي الطامح. أن يقوم بعمل واحد هو أن يكون هو المسيح.

ثم إن كتب استحضار الأرواح التي أمعن فيها كثيرًا قد ولّدت فيه بعض الأفعال والحركات الغريبة، حتى صار يؤمن اليوم بما يختلقه بالأمس.

وبعد أن اتخذ قراره بالظهور صار يصوم كل يوم ويغتسل

ليجعل نفسه مطهرًا وكفؤًا للمهمة المقدسة، وتقول الروايات أنه لم يباشر زوجتيه الأولبين وبقي عَزبًا.

كان بفضل سرعة بديهته واطلاعه على المسائل الدينية يتغلب على مناقشيه ويخدع المقربين إليه. ويسعى إلى تحريف النصوص الدينية لاستخدامها في دعوته عن طريق الحسابات الأبجدية، حتى إنه حرَّف بيتًا من الشعر يقول:

حبيبي يشبه الغزال. وجعله:

ربي يشبه سباتاي سيفي

إعلان النبوة:

وفي عام ١٦٤٨ أبلغ أصحابه المقربين بنبوته فصدقوه بعد أن كانوا قد هُيئوا نفسيًّا لهذا التصديق، لكن الخبر انتشر بين اليهود في أزمير فثارت ضجة عظيمة، وقام رئيس الحاخامين جوزيف ايسكابا ورجال الدين الآخرون وحكموا عليه بالإعدام.

لكن سباتاي لم يكترث بهذا الحكم لأنه كان يعلم بأن الدولة العثمانية لا تسمح بتطبيق مثل هذا الحكم، لذلك لم يستطع اليهود إلحاق أي أذًى بسباتاي.

بيان من المسيح الموعود:

« سلام من ابن اللّٰه سباتاي سيفي مسيح إسرائيل ومخلصها، إلى كل فرد من بني إسرائيل.

لقد نلتم شرف معاصرة منقذ بني إسرائيل ومخلِّصهم، الذي بشر به أنبياؤنا وآباؤنا فعليكم أن تجعلوا أحزانكم أفراحًا، وصيامكم إفطارًا ولهوًا، فلـن تحزنـوا بعد اليوم فأعلنوا عن فرحتكم بالطنبور والأورغ والموسيقى واشكروا من وعدكم فوفى بوعده، وواظبوا على عباداتكم كما في السابق، أما أيام المصائب والمآتم فاجعلوها بسبب بعثتي أيام شكر ومسرة.

ولا تهابوا شيئًا فإن حكمكم لن يقتصر على أمم الأرض، بل سيتعداها إلى جميع المخلوقات في أعماق البحار، فكل هؤلاء مسخرون لكم لرفاهيتكم ».

سباتاي سيفي

رحلات المسيح:

أيقن سباتاي بأن التوفيق لن يخالفه في أزمير فرحل عام ١٦٥٠ إلى إستنابول فلقي العون والمساعدة من حاخام

مزيف واستُقبل بالترحاب، لكنه لم يستطع ترسيخ قاعدته، كما أن دعاواه رُفضت فلم يرُق له البقاء فرحل إلى أثينا، ثم عاد إلى أزمير فإستانبول، ثم كررالرجوع إلى أزمير عام ١٦٥٩، ولبث في بيت أبيه لا يقوم بأي عمل يجلب النظر، وظل يرقب حلول عام ١٦٦٦ لكنه ما لبث أن رحل عام ١٦٦٣ إلى القاهرة فالقدس إلا أنه خشي على نفسه ولم يبشر أحدًا هناك بدعوته.

الزواج الموعود:

وفي بولونيا ظهرت فتاة يهودية جميلة وذكية اسمها سارا، كانت تسكن في منزل أخيها صموئيل في أمستردام، جربت مختلف أنواع المغامرات، ولما سمعت بأن شابًّا وسيمًا في أزمير ادعى المسيحية، طمعت في أن تستغله لتكسب الشهرة، فاختلقت رؤيا نشرتها بين اليهود، تقول هذه الرؤيا بأن نورًا سيسطع عليها عام ١٦٦٦، وستتزوج من المسيح الذي سيظهر في ذلك العام.

وبعد مدة طرق الخبر مسامع سباتاي فعمد إلى استغلاله واختلق هو بدوره رؤيا بأنه أُوحي إليه بالزواج من فتاة

بولونية، وقد اعتبر اليهود السُّذج هذا الحدث معجزة من معجزات سباتاي.

أرسل سباتاي في طلب سارا فجيء بها فتزوجا في القاهرة.

رسول المسيح:

عندما كان سباتاي في طريقة إلى القدس عرج على غزة والتقى برجل اسمه أبراهام نطحان، وأبراهام نطحان هذا تزوج من ابنة رجل غني فأصبح غنيًّا، عرض على سباتاي أن يكون - أبراهام - رسوله الذي يبشر بدعوته فوافق سباتاي على هذا الاقتراح.

نجاح الدعوة:

وفي أيلول من عام ١٦٦٦ قدم سباتاي إلى أزمير، فلم يَلْقَ بين الحاخامين قبولًا حسنًا بادئ ذي بدء، لكن وجد فرصة العيد عندهم فأعلن عن دعوته فتجمع حوله أنصار كثيرون، ولم تمض مدة قصيرة حتى أصبح يهود أزمير طوع يديه، وبدأت شهرته تنتشر في الآفاق إلى أن وصلت رودوس وأدرنه وصوفيا، وصارت الوفود تشد إليه الرحال من ألمانيا.

وتقليدًا لما ذُكر في الكتب المقدسة عندهم كانت تنتاب كلَّ من قدم إليه نوبةُ صرع يقذف فيه الزبد من فمه ويلقي بنفسه على الأرض تحت أقدام سباتاي.

وفي هذه الفترة جرت له مراسيم لبس التاج، فصار يستقبل زواره بمواعيد ومراسيم معينة، وكان له شغف باستقبال النساء على وجه الخصوص، وقد أثرت هذه المظاهر في بعض طبقات الشعب التركي فجاء إليه درويش بكداشي على رأس عدد من أتباعه فأعلنوا عن إيمانهم به وولائهم له.

وبموجب عقيدته التي آمن بها قسم سباتاي العالم إلى ثمان وثلاثين منطقة عيّن لكل منطقة منها ملكًا، وغيّر بعض العادات اليهودية وصار يوجه رسائله ويذيلها بتوقيع: ابن اللَّه الأول والوحيد سباتاي سيفي.

اعتقال المسيح:

لم تتدخل السلطات الإدارية العثمانية في كل ما جرى وما صدر من المسيح المزيف، وهذا يدل على استقلالية اليهود وعلى التسامح الديني وحرية الاعتقاد في الدولة العثمانية.

وكانت الدولة في ذلك الحين وعلى رأسها السلطان

محمد الرابع ورئيس وزرائه فاضل أحمد باشا، مشغولة بحرب كريت.

ولمّا كان الأمر في طريقه إلى تجاوز اليهود إلى فئات أخرى فقد عرض قاضي أزمير على رئيس الوزراء ضرورة اعتقال سباتاى، فأمر بإلقاء القبض عليه وأُرسل عن طريق البحر إلى إستانبول، وفي التحقيقات التي أجرتها الدوائر المسؤولة أنكر سباتاي كل ما أسند إليه، فنال قسطًا من العذاب وَسِيْقَ إلى سجن زندان قابي.

بدأت الوفود تتكاثر حتى صارت إدارة السجن عاجزة عن استقبالهم لمشاهدة سباتاي، فأمرت السلطات بنقله إلى سجن جناق قلعة.

ظهور مسيح جديد:

وفي هذه الأثناء ظهر حاخام يهودي آخر بولوني، اسمه: ناحيم كوهين، وكان رجلًا ذكيًّا ومطلعًا على كتب استحضار الأرواح، قدم إلى جناق قلعة، وأبلغ سباتاي بأنه هو الآخر مسيح منتظر وأن الكتب المقدسة تبشر بمسيحين لا مسيح واحد.

جرى بين هذين الرجلين نقاش حاد استمر ثلاثة أيام انتهى بحدوث شجار عنيف بينهما في اليوم الثالث.

معجزة المسيح:

بدأت وفود اليهود تأتي تباعًا إلى جناق قلعة - المعتقل الجديد لسباتاي سيفي - وكان حراس السجن يغضون الطرف عن هؤلاء الزوار مقابل حصولهم على رشاوى نقدية منهم.

لكن ازدياد التوافد إلى المدينة كان سببًا في نقص المواد الغذائية، وارتفاع الأسعار مما حدا بأهالي هذه المدينة إلى تقديم شكوى إلى القصر. كما قدّم ناحيم كوهين (المسيح الجديد) بدوره شكوى مماثلة ادعى فيها أن سباتاي يسعى إلى إنشاء دولة داخل المملكة العثمانية.

وكان على الحكومة العثمانية أن تضع حدًّا لهذه الظاهرة فأمرت بنقله إلى قصر أدرنه، وظن اليهود بأن سباتاي سيظهر معجزته ويقلب الأمور رأسًا على عقب، وفعلًا ظهرت معجزة انقلبوا فيها هم رأسًا على عقب.

المسيح يعلن إسلامه:

في القصر حيث كان يجلس مصطفى باشا القائم بأعمال

رئيس الوزراء، وشيخ الإسلام يحيى أفندي منقري زاده، وإمام القصر محمد أفندي وانلي، أما السلطان فكان يجلس في غرفة مجاورة يسمع ما يقال.

وبواسطة الترجمان قيل لسباتاي: تدعي أنك المسيح، فَأَرِنَا معجزتك، سنجردك من ثيابك، ونجعلك هدفًا لسهام المهرة من رجالنا، فإن لم تغرز السهام في جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك.

فَهِمَ سباتاي ما قيل له فأنكر ما أُسند إليه، وقال أنهم تقوَّلوا عليه، وكان السلطان يسمع كل ما يقال في المجلس، عندئذٍ أمر محمد الرابع بأن يُعرض عليه الإسلام.

فلما رأى الحاخام والمسيح المزيف أنه أصبح بين خطر الموت وبين الإسلام فضَّل بأن يفتدي « بامبراطورية العالم » وينجو بجلده فتبرَّأ من شخصية المسيح المزيف، ودخل في شخصية المسلم المزيف محمد عزيز أفندي.

ذُكرت هذه الحادثة في تاريخ نشانجي عبدي باشا المسمى بكتاب « الوقائع »، وفي تاريخ محمد أفندي السلحدار، وفي تاريخ رائد أفندي، كذلك في كتاب التاريخ

السياسي لمؤلفه كامل باشا[١].

طبع كتاب كامل باشا المسمى بالتاريخ السياسي للدولة العلية عام ١٩٠٩/ ١٣٢٥ رومي. يقول كامل باشا « في فصل دور السلطان محمد الرابع » تحت عنوان « يهودي يدعي أنه المسيح »[٢]:

« في عام ١٠٧٧، قام حاخام في أزمير اسمه سباتاي سيفي فادعى أنه هو المسيح وكان لبياناته وهو في زيارة القدس أثر في قلق اليهود المقيمين هنا والمقيمين في أوربا، ووردت أخبار بعض الحاخامين في تأييده وبعضهم في معارضته فجيء به إلى دار السعادة (إستانبول) وأُودع السجن ثم سيق إلى سجن القلعة السلطانية أيام سفر كوبريلي (رئيس الوزراء) إلى كريت.

ثم إن رجلًا آخر يهوديًّا ادّعى بمثل ما يدعي به سابقه، قدم إلى قصر القائم بأعمال رئيس الوزراء فذكر زيف ادعاء سباتاي، فجيء به واستُخدم في أعمال البستنة في القصر

(١) هذه الكتب كلها مخطوطة بالتركية.

(٢) (٢/ ١٠٣) من الكتاب المذكور.

بعد أن أعلن إسلامه، وخلال عشر سنوات من الزمان دخل كثير من أتباعه دين الإسلام، ثم إنه حدث أن أعلن أحد أبناء شيوخ الأكراد أنه المهدي المنتظر، فجيء به فرجع عما كان ادعاه من قبل وأجاب جوابًا صحيحًا لكل سؤال وُجه إليه فَعُيِّنَ رئيسًا داخليًّا للخزينة الهمايونية ».

أما تاريخ راشد فيورد هذا الحدث على النحو التالي[١]:

« ثم إنه ظهر في أزمير حاخام آمن به بعض اليهود فأحدث الفتنة بينهم فطُرد وأُبعد إلى بوغاز حصار، فعمل على ترتيب فتنة جديدة فجيء به إلى الركاب الهمايوني في أدرنه فمثل أمام شيخ الإسلام، ووانلي أفندي، والقائم بأعمال الباشا، واستُفْسرَ عما أُسند إليه من التُّرَّهَات فأنكر، فلما عرف أنه تقرر قتله أظهر رغبته في قبول الإسلام ».

سباتاي الجديد:

عُين محمد أفندي رئيسًا للآذنين، فانتشر الخبر بين مريديه انتشار النار في الهشيم فاعتكفوا في بيوتهم، أما رجال الدين اليهودي (الحاخامون) فكانت فرحتهم عظيمة

(١) تاريخ راشد (١/ ١٣٣) من وقائع عام ١٠٧٧/ ١٦٦٦.

إذ أنقذوا اليهود من التمزق، وأما المسلمون فقد قبلوا في بنيتهم عنصرًا غريبًا لا يعلم أثرهم في المستقبل إلا اللَّه.

وبعد أن أنقذ سباتاي نفسه بقبوله الإسلام أرسل إلى مريديه تعميمًا قال فيه: لقد جعلني اللَّه مسلمًا. أنا أخوكم محمد البواب، هكذا أمرني فامتثلت، لقد ذكرت الكتب اليهودية المقدسة بأن المسيح سيُتبع من قِبَل المسلمين. وقد أعلم سباتاي بتعميمه هذا إلى أتباعه أنه سيستمر في مهمته بالتكيف مع الوضع الجديد.

ويفسر أخوه هذه الحال فيقول: « إن الجسم القديم لسباتاي قد صعد إلى السماء، فعاد بأمر من اللَّه تعالى في شكل ملاك يلبس الجبة والعمامة ليكمل رسالة المسيح ».

المذهب الجديد:

أراد سباتاي جمع مريديه تحت كسوة جديدة، لذلك تقدم إلى المفتي يطلب السماح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، ولمّا حصل على ما أراد، استأنف دعوته السابقة، واستهدف هذه المرة تأسيس مذهبه المسلم في الظاهر، السباتائي في الباطن.

وهكذا جاء أتباع المزيف من كل مكان ولبسوا العمائم والجبب فأطلق الأتراك على أتباع هذا المذهب الجديد « الدونمة ».

آخر أعماله:

وبعد أن أسلم أنصار سباتاي (الدونمة) كلهم (في الظاهر) تركت الدولة له حرية التجوال وبهذا ضمن لنفسه حرية العمل، فانصرف إلى تنظيم عقائد أنصاره وعباداتهم، وجمع هذه الأمور كلها في ١٨ مادة، وعيّن أيام أعيادهم. والمادتان السادسة عشرة والسابعة عشرة أهم خواص الدونمة. وإليكم نص المادتين:

المادة (١٦): يجب أن تطبق عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم، ويجب ألا يُشعر أحد من الأتباع تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية وأن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ.

المادة (١٧): إن مناكحتهم (يعني المسلمين) ممنوعة قطعًا.

موت المسيح المزيف:

علمت الدولة بأن سباتاي يجمع أنصاره حيث يقومون بأداء طقوس خاصة، فنفته إلى قصبة برات في ألبانيا مع عدد قليل من رجاله، فبقي هناك خمس سنوات، وكانت زوجته سارا قد توفيت فتزوج هنا بامرأة اسمها يوهيفيد من سلانيك فسماها عائشة.

وأخيرًا مات الحاخام، المسيح المزيف سباتاي سيفي أو المسلم المزيف محمد أفندي في ٣٠ من أيلول عام ١٦٧٥ عن عمْر يناهز تسعة وأربعين عامًا، ودفن على ضفة نهر هناك.

لكن أتباعه أحيوه في شخص خلفائه، ولا يزال المؤمنون به يقفون على ضفاف البحار والأنهر، وينادون: سباتاي سيفي نحن بانتظارك.

ما بعد سباتاي:

توفي المسيح المزيف سباتاي سيفي (محمد عزيز أفندي) عام ١٦٧٥ لكن دعوته لم تنته بوفاته، كان هناك عبد الغفور أفندي (جوزيف بيلوسوف - والد زوجته)

وعبد اللَّه يعقوب جلبي (جوزيف كبريدو - أخو زوجته) وقد استقرا في سلانيك، فَقَبْلَ وفاة سباتاي زاره يعقوب جلبي في برات حيث كان طريح الفراش، وأخذ موافقته على خلافته من بعده، وبعد الوفاة انتقلت زوجته يوهيفيد إلى بيت أبيها وأخيها في سلانيك، وبعد ذلك جمع الأخُ يعقوب مع أخته يوهيفيد أنصارهما (الدونمة) وكانت أسرهم تتجاوز المئتين.

لم يكتف الدونمة بالتميز عن الناس بعقائدهم، بل صاروا يُعرفون بحللهم أيضًا فنساؤهم يلبسن أحذية صفراء، أما الرجال فيضعون على رؤوسهم قبعات صوفية بيضاء لفت عليها عمائم خضر. كانوا يصلون في الأعياد فقط، ولا يصومون ولا يهتمون بالاغتسال وبذلك كانوا يراعون تمامًا ما ذكره سباتاي في المادة السادسة عشرة من قواعده.

* * *
* *
*

انقسام الدونمة إلى فرق

بعد تولي يعقوب جلبي رئاسة السباتائيين في سلانيك نظّم عقائدهم وطقوسهم، وطلب كسابقه مراعاة عادات المسلمين المرئية، لكن فئة منهم لم تر ضرورةً لِمثل هذه الأمور، فاجتمعوا تحت راية رجل اسمه: مصطفى جلبي وكان هذا قد تنازع مع يعقوب جلبي في قضية من قضايا الطلاق، وبذلك انقسم السباتائيون عام ١٦٨٩ إلى فئتين بعد مضي أربعة عشر عامًا على وفاة مسيحهم، وقد سميت فئة يعقوب جلبي باسم « اليعقوبيون أو حزب حمدي بك » كما عرفت فئة مصطفى جلبي بـ « القره قاش أو المؤمنون، أو حزب عثمان بابا ».

وبعد واحد وثلاثين عامًا من هذا الانقسام أي في عام ١٧٢٠ حصل انشقاق داخل حزب القره قاش، وانفصلت عنه جماعة سمَّت نفسها بـ: « البابو أو حزب إبراهيم آغا »، وبذلك أصبح للسباتائية ثلاث طوائف مختلفة:

١ - اليعقوبيون:

لليعقوبيين اسم آخر هو: حزب حمدي بك الذي تولى رئاسة البلدية في فترة من الفترات، وتتقيد هذه الفئة بالعادات الإسلامية والعبادات المرئية، ويعيشون حياة خاصة محافظة شديدة، وقد ظهر من هذه الفئة بعض الشخصيات المرموقة في الدولة العثمانية تولوا مناصب مهمة مثل: أمين الترسانة، وكتمذا القصر والمدينة « قائد الشرطة »، ويتميزون عن غيرهم بعدم لبسهم أحذية عالية الكعاب، أما الرجال فيحلقون شعورهم بالموسى.

٢ - القره قاشيون:

أسس هذا الحزب من قبل: مصطفى جلبي، ويسمون: بالمؤمنين أو ذوي الطرق العشرة، أو جماعة عثمان بابا، والفرق بينهم وبين اليعقوبيين أنهم لا يرون ضرورة في التقيد بالشعائر الإسلامية.

بعد أن انفصل مصطفى جلبي عن يعقوب جلبي، بدأ يفكر في ابتداع خرافات يتمكن بها من ربط قلوب المؤمنين بمبادئه، فادعى بأن ابن الدونمة عبد الرحمن أفندي المدعو:

عثمان، ولد بعد موت سباتاي سيفي بتسعة أشهر؛ لذا فهو يحمل بين جوانحه روح سباتاي! أي أن مبادئ وأفكار سيفي قد انصبَّتْ في جسم عثمان أفندي فولدت بولادته من جديد، وعندما بلغ عثمان السادسة والعشرين من عمره أعلنه مصطفى جلبي وكيلًا وممثلًا لسباتاي سيفي. كان عثمان طويل القامة ممتلئها أسمر اللون أزرق العينين عليه سيماء البلهاء، فأصبح ألعوبة بيد مصطفى جلبي، ولما بلغ الأربعين أعلن مسيحًا عليهم، ثم ترقى حتى وصل إلى مرتبة «الألوهية».

لكن أحد المنتسبين إلى هذا الحزب وهو إبراهيم آغا اعترض على هذا التطور، فانقسم القره قاشيون إلى فئتين مختلفتين.

٣ - حزب إبراهيم آغا:

ويسمى أنصار هذا الحزب بأصحاب المصيدة، أو البابو، احتدم الصراع على إثر وفاة عثمان آغا عام ١٧٢٠ حول صحة كونه مسيحًا فطلبت هذه الفئة نبش قبره، فإن كان مسيحًا حقًّا فسيجدون جسده رطبًا لم يَبْلَ، وإلا فإنه مسيح مزيف، لكن

القره قاش لم يرضوا بذلك مدعين بأن هذا العمل إهانة كبيرة له.

وإزاء هذا الخلاف انفصلت جماعة إبراهيم آغا عن القره قاش، والفرق بينهم وبين سابقيهم هو عدم اعترافهم بمسيحية عثمان آغا.

وأصحاب المصيدة هؤلاء أكثر معقولية من غيرهم، لكنهم يراعون ويطبقون مبادئ سباتاي ومعتقداته بحذافيرها.

هذه الفئات الثلاث لا تناكح أتباع الأديان الأخرى، كما أنها لا تناكح بعضها بعضًا، أما الحياة السباتائية الخاصة فتنحصر بالمتزوجين منهم فقط فلا يعرف المرء عندهم شيئًا من هذه الحياة إلا بعد زواجه، أما ماهية الحياة الخاصة فلا نعرف عنها إلا القليل، ويمكن أن تكون ذات علاقة بما سنذكره في « وليمة الخروف » أو « عيد القلوب الأربعة ».

* * *
* *
*

النظام الداخلي

يقف الرئيس حائلًا تجاه أي تطور يطرأ على العادات والتقاليد، فإذا قام أحد المنتسبين إلى فئة سباتائية بتغيير شيء من طريقة ملبسه أو حياته المعاشية تعَرَّضَ لاتخاذ إجراءات صارمة مثل: الإبعاد والمقاطعة من قِبَلِ جميع الأفراد حتى من أفراد أسرته، وللرئيس الحق في اتخاذ القرارات في كل الأمور، ويستشير أحيانًا في بعض الملمات، وقد فقدت هذه الإجراءات شدتها على مر الزمن، حتى سُمحَ فيما بعد للسباتائيين عام ١٨٨٤ دراسة اللغات الأجنبية، وكذلك الحقوق والصيدلة والبيطرة والطب.

* * *
* *
*

وليمة الخروف

للسباتائيين أعياد تزيد عن العشرين، يُحتفل بأحدها في اليوم الأول من أيام الربيع أي في ٢٢ آذار. وإليكم ما كتبه السباتائي رشدي قره قاشزاده عام ١٩٢٤ في جريدة الوقت عن هذا العيد:

« يُحتفل بعيد الخروف في ٢٢ من آذار، وهو عيد ليلي حيث يؤكل لحم الخروف لأول مرة من عام جديد، وذلك بمراسيم خاصة، حيث تقتضي العادة أن يوجد في الحفلة الواحدة رجلان وامرأتان على أقل تقدير، ويمكن أن يزيد العدد على شرط أن يكون الجنسان متساويين أي مع كل رجل امرأته، حيث تلبس كل امرأة أفخر الثياب وتتزين بأثمن الحلي وتقوم بتهيئة الطعام على الطاولة، وبعد الطعام يبدأ اللهو، وفي فترة من فتراته تُطفأ الأنوار ويبقى الجميع في ظلام دامس...!

ويعتبر كل مولود يولد بسبب هذه الليلة مولودًا مباركًا »!

ويذكر شاب سباتائي من حزب إبراهيم آغا عن هذا العيد في مقال نشره عام ١٩٢٥ في مجلة الدنيا المصورة:

« أعتقد أن الاحتفال بإطفاء الأنوار ما يزال من العادات المتبعة لدى القره قاش، وأغلب ظني أن العائلة التي أنا فرد منها كانت إلى عهد قريب تمارس هذه العادة، ولم أشترك في أي احتفال كهذا بسبب كوني عازبًا، وكلما أظهرت رغبة في حضور الاحتفال منعوني وقالوا: إن هذا الاحتفال للمتزوجين فقط »!

وقد ذكر البروفسور إبراهيم غالانتي في كتابه (وثائق عن عادات ومنظمات السباتاي) المنشور بالفرنسية عام ١٩٣٥ في إستانبول: أن عادة إطفاء الأنوار عادة قديمة قِدَمَ العصور أخذها السباتائيون كما أخذها النصيريون من الأمم الغابرة.

ونشرت جريدة المساء التركية في عددها الصادر بتاريخ ٤ من مارس ١٩٣٥ خبرًا من مراسلها في مرعش يقول فيه:

ألقت سلطات الأمن القبض على جماعة من الرجال والنساء يمارسون عادة إطفاء الشموع، وضبطتهم بالجرم المشهود، كما عثرت في الغرفة المجاورة لصالة الاحتفال

على بعض الآلات الموسيقية وعلى دجاجة سوداء قُطع رأسها.

نستدل من هذا الخبر على أن الدجاجة قد أُخذت مكان الخروف في الاحتفال، وأن هذه العادة متبعة حتى في هذه الأيام!...

* * *
* *
*

بعض الإفشاءات

في عام ١٩٢٤ أفشى السباتائي محمد رشدي قره قاشزاده ببعض أسرار الجماعة التي ينتسب إليها، وذلك في سلسلة مقالات ولقاءات عبر جريدة الوقت التي نشرتها بحذافيرها، وعلى إثر ذلك نشرت جريدة الوطن التابعة للدولة والتي يرأس تحريرها الصحفي أحمد أمين بالمان، سلسلة مقالات بعنوان « صفحات من الأسرار التاريخية ».

حاولت إيهام الناس من خلالها أن ما ينشره محمد رشدي عن السباتائيين هو مما اندثر وعفا عليه الزمن ولم يبق فيه أي أثر؛ لذا فإن هذه السلسلة من المقالات التي كتبت من قِبَل سباتائي لم يكن لها أي حظ من الحقيقة.

ثم صدرت بعض المقالات عن السباتائيين في مجلة الدنيا المصورة، والجريدة المصورة، وآخر ساعة، ونشر إبراهيم علاء الدين غوسه عام ١٩٣٩ خمسة مقالات مهمة في جريدة الأيام السبعة[١]، ثم جمعها في كتاب واحد.

---

(١) ونحن في كتابنا هذا اقتبسنا بعض المعلومات من هذه المقالات.

كتاب مفتوح إلى دونمة سلانيك:

وجه محمد رشدي قره قاشزاده كتابًا مفتوحًا عبر جريدة الوقت إلى دونمة سلانيك يقول فيه:

أيها السادة:

« منذ أكثر من ثلاثة قرون عشنا - نحن الدونمة - في كنف الشعب التركي العريق الكريم وتحت جناح رحمته، وبقينا على حالة شديدة من التعصب لمذهبنا، باطننا يخالف ظاهرنا في كل أفعالنا وحركاتنا.. ».

« لقد أصدر مجلس الأمة قانونًا بمنع الخنازير البرية من الإضرار بالمزروعات، فهل تظنون أن أمة تفكر بمثل هذه الدقة في الأمور أن تُبقِيَ في بيئتها عنصرًا غريبًا عنها يمتص خيراتها؟. ليس لنا إلا اتباع أحد سبيلين: إما أن نلتحم - بموجب قانون خاص - بالشعب التركي التحامًا تامًّا، نشاركهم في الأفراح والمصائب، وإما أن نبحث عن إمكانيات مادية ومعنوية خارج حدود هذا الوطن، نصنع فيها كيانًا خاصًّا بنا ».

* * *

دعاء الدونمة

نشرت «الجريدة المصورة» في عددها رقم ١١٦ الصادر عام ١٩٢٥ مقالًا هذا نصه:

دونمة سلانيك الذين يعيشون بين ظهرانينا ويتكلمون بلغتنا، يحسون في الظاهر بإحساسنا لكنهم في الحقيقة يأخذون الحيطة والحذر تجاه الأتراك، لا يناكحون إلا من كان منهم، يحيون حياة خاصة بهم من المهد إلى اللحد في أعراسهم ومآتمهم، وفي كل صفحة من صفحات عيشهم الاجتماعية منها والعائلية، هل تعرف حقيقتهم؟.

إن منهم أذكياء ورجال فكر جديرون بالتقدير خاصة في المجالات الاقتصادية والتجارية، وأثرهم في الحياة الاقتصادية في البلاد وعلى الأخص في بعض المدن[١] لا يمكن إنكاره أبدًا.

ما حقيقة لون الدونمة الذين يُشْعرون الأتراك بعلاقتهم الحميمة لكنهم في حياتهم الاقتصادية كما في الحياة العائلية يحذرون من الأتراك حذر الغراب؟.

---

(١) خاصة في إستانبول وأزمير.

وفي الجزء التالي من المقال يذكر بأنه عثر بين مذكرات شاب من الدونمة على دعاء مكتوب بلغة أجنبية، وإن هذا الدعاء يحفظه كل تلميذ من تلاميذ الدونمة حسب ما ذكره له أحد كبار الدونمة، ثم يورد النص الأصلي من الدعاء مع ترجمته ويبدأ الدعاء بالبسملة الخاصة التالية:

besami barohya ilen Sȧbatay sevi es: Sabatay sevi ento etno dolos mondos ruhi.

ومعناها:

« بالاسم المبارك لسباتاي سيفي المبارك ».

ثم يدعو بالدعاء الموجود في قسم أغنية الأغاني من التوراة، وإليكم النص ثم المعنى:

Sira besiremesir lizbalo kantardolos kantarlas kaeslimo bizason rebonons desu bu kakebos niyos los krensiyas.

« فليقبلوني بأفواههم، فإن حبك أعظم من الخمر، إن زينتك عاطر، إن حبك زيت مصبوب، وعليه فإن العذارى يحببنك ».

الرجوع إلى اليهودية

وعندما احتلت اليونان منطقة سلانيك قام عدد من الدونمة فيها بمراجعة الحاخام، وأعلموه برغبتهم بالعودة إلى اليهودية، لكن الحاخام رفض طلبهم، ويحتمل أن يكون سبب الرفض هو عادة إطفاء الأنوار، وإنجاب أطفال غير شرعيين.

وقامت المحاولة الثانية عام ١٩١٨ عندما احتل الحلفاء مدينة إستانبول، إذ كان لليهود والأرمن امتيازات تجارية خاصة، حصلوا عليها من المحتلين، فأراد بعض الدونمة الاستفادة من هذه الامتيازات لكن الحلفاء رفضوا اعتبارهم يهودًا.

* * *
* *
*

العادات الحية

أورد إبراهام غالانتي في كتابه « وثائق عن عادات ومنظمات السباتاي » بعض العادات التي لا تزال متبعة من الدونمة، منها:

١ - عادة ذبح الخروف وأكل لحمه في اليوم الأول من السنة اليهودية في ذكرى فداء إسحاق.

٢ - عادة حلق الشعور بالموسى لدى اليعقوبيين للرجال، وتجديل الشعور إلى ضفائر رفيعة للنساء.

٣ - لكل فرد من الدونمة اسم آخر يهودي.

٤ - الالتحام سمةٌ من سماتهم.

٥ - لا يؤكل لحم الخروف في أول كل سنة إلا بعد إجراء الطقوس الخاصة بذلك اليوم، ومن يأكل لحم الخروف في غير أوانه يكون معرَّضًا للموت طوال ذلك العام.

يقول علاء الدين غوسه في كتابه:

« كنت مديرًا لمدرسة ليلية تابعة للسباتائيين بقرية ماكري، وكان طباخ المدرسة سباتائيًّا، أمرته في أحد أيام

الربيع أن يطبخ لنا لحم خروف فرفض، فشكوته إلى الهيئة الإدارية فلم أفلح في شكواي ولم أتمكن من إطعام أحد لحم خروف قبل أوانه ».

٦ - لا يجوز لأي واحد من الدونمة إنشاء علاقات جنسية مع امرأة ليست من الدونمة، ومن يفعل كان من أهل النار.

٧ - لا يجوز للدونمة المبادرة إلى أداء التحية لغيرهم.

٨ - الذهاب إلى ساحل البحر أو إلى ضفة نهر والقيام بالنداء التالي:

« Sabatay sevi Esperamoative »

« سباتاي سيفي نحن بانتظارك ».

وقد أعلن اليهود أن الدونمة فئة خارجة عن دينهم كافرة بمبادئهم، فألفوا كتبًا كثيرةً في إظهار قبائحهم.

كان للدونمة أثر كبير في الإضرار بالإسلام والمسلمين، وقد أسهموا إسهامًا مباشرًا في كل ما من شأنه هدم القيم الإسلامية لدى المجتمع، وتخريب الخلق والسلوك لدى المسلمين.

كما أن ميل الشباب المسلم إلى التخلق بالأخلاق

الغربية، واعتبارهم الإلحاد واعتناق الأفكار الغربية موضة عصرية، وانتشار الماسونية، والفوضوية، واستصغار الشعور الوطني، كل ذلك من عمل هؤلاء الدونمة.

إنهم أول من هاجموا حجاب المرأة المسلمة ودعوا إلى التحرر والسفور، كما أن الصحافة التركية آلت إلى هذه الحالة المزرية بسبب هؤلاء الدونمة.

لا شك أن العقيدة السباتائية المفتقرة إلى العقل والعلم قد ضعُفت لدى الدونمة على مر الزمن، وتلاشت تمامًا عند بعضهم، ومع هذا فإن حياتهم الخاصة التي دامت قرونًا ومنافعهم المشتركة قد ربطتهم ببعضهم البعض بروابط مادية قوية متينة، ولا تزال عقائدهم تؤكد - ولو شكلًا - على ديمومة هذه الروابط فيما بينهم.

فالدونمة كانوا يُميَّزون في المجتمع الإسلامي الذي ينظر إليهم بنظرة واحدة؛ وذلك لأوضاعهم المخالفة للإسلام، وكان عليهم إخفاء كل ما من شأنه توجيه الأنظار إلى هذه المخالفات؛ لذا فهم شعروا بضيقٍ متزايد من هذا التخفي، فعملوا على أن ينحرف المسلمون عن طريقهم القويم، ويسلكوا سبيل الدونمة، وعاشوا في سلانيك في العهد

العثماني وفي إستانبول في العهد الجمهوري عيشة رخاء وترف، أما الآن فالوطن المسكين كله ويا للأسف يرزح تحت رحمة الدونمة ومن أجل خدمتهم.

لا ندري أي فرق بين الدونمة وبين أناس « مسلمين » يعيشون عيشة أوربية بعيدة عن معتقداتنا وأعرافنا؟.

وفيما يلي[١] سنركز على كيان الدونمة في عصرنا الحالي، وعلى الدور المشئوم الذي يلعبه هؤلاء في حياة الشعب المسلم.

إن كتابنا هذا لا تعدو مهمته لفت نظر وإعطاء فكرة عامة عن هذه الطائفة المزيفة، وتمهيد الطريق لمن يريد التعمق والدراسة الجدية.

* * *
* *
*

(١) من الجدير بالذكر أن ننوه على أن المؤلف كان يعيش في بدايات القرن العشرين.

الدونمة والأمة الواحدة

نشرت مجلة سبيل الرشاد في عددها رقم ٢٠٦ الصادر بتاريخ ٢٩ من أغسطس ١٩١٢ مقالًا بعنوان: « يد اللَّه مع الجماعة »، كان هذا المقال يخاطب الدونمة، ويطلب منهم تصفية النيات والوقوف مع المسلمين قلبًا وقالبًا أيام كانت الحرب مستمرة في طرابلس الغرب.. وظهور بوادر حرب في البلقان. وإليكم نص المقال المنشور في المجلة الإسلامية المذكورة:

يد اللَّـه مع الجماعة:

« الأتراك الذين أقاموا حكمهم في بلدان كثيرة فتحوها، وقعوا في أخطاء كثيرة جلبت لهم بعض الأضرار، ومع ذلك فقد كانت لهم مزايا عظيمة وأعظم هذه المزايا اعتبار المسلمين سواسية كأسنان المشط لا فضل لتركي على غيره.

لذلك فكل طائفة لا تلجأ إلى الشقاق والنفاق تعيش في المملكة العثمانية بهناءة مادية ومعنوية، وفي ظل هذا التماسك تكسب الدولة قوة على قوتها.

وفي ولاية مهمة من ولايات المملكة العثمانية تعيش طائفة صغيرة أصلها من بني إسرائيل لا ندري في أي وقت من التاريخ أعلنت إسلامها.

إننا نعرف أفراد هذه الطائفة كمسلمين، يتكلمون بلغتنا، ولم تبق لهم أية روابط بجماعة اليهود مع أنهم يجاورونهم في مساكنهم، كما أنهم لا يزاوجونهم، فاليهود يتكلمون فيما بينهم بالإسبانية أما الآخرون فبالتركية.

فمن المعروف لدينا أن كل من دخل الإسلام يعتبر « دونمة » أو على الأصح مهتديًا، لكن صفة الاهتداء تكون مؤقتة تزول بالانخراط في صف المسلمين فلا يبقى بينهم وبين المسلمين أية علامات فارقة.

أما هذه الطائفة المهتدية فبقيت على صفة « الدونمة » وتبنتها وتمسكت بها.

ففي العبادات والمناكحات التي هي أهم الأوصاف المميزة لجماعة المسلمينَ تسلك هذه الطائفة مسلكًا خاصًّا بها، وهذه حالٌ تدعو لأسفنا الشديد.

هذه الطائفة التي تسمَّت تسميةً إسلامية لا تزال تعتمد

طريقًا خاصًّا بها في الزواج الذي هو أهم عامل في تماسك المسلمين ببعضهم، وكان من الأجدر في عصرنا هذا نبذ العقائد الجاهلية الباطلة لا السعي إلى ترويجها.

كان أملنا كبيرًا في هذه الطائفة الصغيرة الذكية النشيطة الفعّالة التي اتخذت سلانيك مستقرًا لها، أن تكون مع المسلمين الآخرين قلبًا وقالبًا، فهم يعرفون جيدًا أن ذراع أخوة الإسلام مفتوح لهم في كل الأوقات.

فالمسلمون، كما يفهم من مقال هذه المجلة، كانوا يعرفون هذه الطائفة المسماة بالدونمة، ولكن (من يقع في البحر يستنجد بالأفاعي!!)؛ لذلك فالمسلمون يدعونهم إلى الإسلام وإلى الوحدة بالحكمة والموعظة الحسنة ».

أما الدونمة فلم يأبهوا لأي شيء، حيث كانوا مشغولين في ابتكار وسائل لابتزار المسلمين سياسيًّا واقتصاديًّا، أما في الناحية الاجتماعية فعمدوا إلى حرف الشباب وجعلهم يقلدون الدونمة في مأكلهم وملبسهم، وفي المقال التالي الذي نشرته مجلة سبيل الرشاد في عددها الصادر في ١٨ من شباط عام ١٩١٩ نرى أن الدونمة يسعون إلى هتك حجاب المرأة المسلمة، يقول الكاتب:

« أيتها المرأة المسلمة المسكينة! ما أكثر أعداءك، إن عفتك وعصمتك قد أصبحتا شوكة في أعين فاقدي هاتين النعمتين؛ لذلك فهم لا يتوقفون لحظةً عن تهجمهم عليكِ، بارك اللَّه فيك فما أَمْتَنَكِ من إنسانة.

ليتكِ عرفتِ كم مِنَ المؤامرات يدبرون لهدمكِ وكم من القوى والأموال يبذلونها.. لن يستطيعوا مغالبة الإسلام طالما اعتصمتِ برداء عفتك، وبقيت مثالًا حيًّا لشعائر الإسلام، إنهم يريدون إزالة الحياء من وجهك، وتمزيق حجابك، وقطع الروابط بينكِ وبين أهلكِ.

لذلك فهم يَلينون لكِ بالقول، يبحثون عن المدنية والذوق والجمال، ويضعون لك أمثلة من القرن العشرين.

فمن هؤلاء من هو فاقد لدينه، ومنهم من هو مفتقر للعفة والحياء، ومنهم من تقطعت صلاته بأهله وأسرته.

من الطبيعي أن يناصبوك هؤلاء العداءَ لأنهم غرباء عن مجتمعكِ، يختل توازنهم بصمودكِ فيفتشون عن سبل الراحة منكِ، ولن يتأتى لهم هذا إلا بجعلكِ تتشبهين بهم.

أيتها المرأة المسلمة المسكينة! تخطئين وتظنين أن كل

من يحمل اسم مسلم هو مسلم، فما أكثر المنافقين منهم وما أكثر اللامذهبيين، وما أكثر من يحمل في طيات قلبه دينًا آخر، إنهم يُظهرون الإسلام كي يضمنوا بقاءهم بين المسلمين، ويحصلوا به على مكاسب ضخمة، يلقبون أولادهم ألقابًا إسلاميةً وليست لهم أية علاقة بالإسلام، بل مَلأت قلوبَهم الأحقادُ، يتخذون كافة التدابير الخفية لهدم الشعائر الإسلامية. فإن وجدوا فرصةً سانحةً انتقموا من الإسلام، وفعلوا كل شيء من شأنه إفساد الحياة الاجتماعية الإسلامية ».

الدونمة والجامعة:

وبعد أن توقفت الحرب وأُعلنت الهدنة، صار الدونمة يشددون في مقالاتهم في الصحف والمجلات على تدريس الشباب والبنات بشكلٍ مختلط في الجامعات، فبالتدريس المختلط سيزول الحياء من وجه الشباب، وتنعدم البراءة في الأسر الإسلامية أولًا، ويحال دون ظهور شبان مثقفين من أسر متمسكة بالدين ثانيًا.

كانوا يعلمون أن الأسر المتمسكة بدينها لن ترسل أبناءها وبناتها إلى جامعات يكون فيها التدريس مختلطًا، وقد تحقق

ما توقعوه، إذ أعلنت الجمهورية فلم تجد بين رجالها أناسًا متدينين.

انضم إلى الدونمة في سعيهم هذا بعض المثقفين المتسمين بأسماء إسلامية عبر المجلة الجديدة ومجلة الاجتهاد لصاحبها الملحد عبد اللَّه جودت.

وقد تصدّت لهم مجلةُ سبيل الرشاد فقالت في عددها رقم ٤٠٦ الصادر بتاريخ ٣٠ من نيسان ١٩١٩ بعنوان: التدريس المختلط في الجامعة:

الذين شهدوا منافع لهم في التهجم على دين هذا البلد ومقدراته، جعلوا هدفهم في الأعوام الأخيرة النيل من حجاب المرأة المسلمة؛ لإحداث فوضى اجتماعية في هذا المجتمع.

ففي السنوات الست الأخيرة عَمِل أناس مجهولو المذهب، منافقون ليست لهم أية علاقة بالإسلام، على إظهار أنفسهم بمظهر المناصر للحق، بغية إحداث تغيير عائلي في البلاد، وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، وبذلوا كل جهد ممكن في سبيل الإسراع في خراب هذا الوطن ».

الدونمة وحجاب المرأة المسلمة:

حاول الدونمة مرارًا الجمع بين الرجال والنساء تحت سقف واحد فلم يُوفقوا، وإليكم نموذجًا من هذه المحاولات:

في الوقت الذي دخلت فيه الدولة العثمانية الحرب العامة، وبالتحديد أيام إغراق بعض الزوارق البحرية في زونفلداق، أرادوا تنظيم حفلة ليلية في أحد المسارح ليعلنوا في هذه الحفلة إلغاء الحجاب، وقضاء ليلة ممتعة يشترك فيها الرجال والنساء.

ولكي تكون حفلة السمر هذه عظيمة بذلوا كل الجهود الممكنة وهيأوا نساء أكثرهن من سلانيك يحملن أسماء إسلامية، وكان من المقرر أن يقوم هؤلاء النسوة بتمزيق الحجاب وهنَّ على خشبة المسرح ويُعلنَّ الثورة الاجتماعية.

لكن حكومة ذلك العهد حالت دون هذه الثورة وفرّقت كل ما كانوا قد جمعوه في هذا السبيل.

زاد الدونمة من حدة دعاياتهم، فنشروا رسائل وكتبًا، وأعلنوا الحرب على الحجاب عبر المجلة الجديدة، مدّعين

بأن الحجاب ليس من الإسلام في شيء، واختلقوا كل الأكاذيب في سبيل إقناع الناس بأنه عادة يونانية.

لم يكتف هؤلاء بمهاجمة الحجاب، بل ضموا إليه كل الشعائر الإسلامية.

وقد اغترَّت فئةٌ من النساء في أول الأمر فَصِرْنَ يترددن على محافلهم ومجمعاتهم حتى وَصَلْن أخيرًا إلى الهاوية والسقوط.

ولم يجرؤ واحد من الناس في هذه الفترة العصيبة على التعرض لهؤلاء في أية صحيفة أو مجلة؛ إذ سرعان ما يقوم أصحاب المجلة الجديدة بتقديم شكوى لدى أقطاب الدولة[1]، ليصار إلى مصادرة الصحف والمجلات التي تعترض سبيل الدونمة، والتنكيل بأصحابها.

* * *
* *
*

---

(١) الاتحاديون.

عرس على طريقة الدونمة والاتحاديين

كان زكريا سرتل[1] يصدر مجلته الدورية « الفلسفة الجديدة » في سلانيك عام ١٩١٠، عندما أنشأ علاقة كتابية مع إحدى الفتيات، وخلال وجوده في فرنسا عام ١٩١٣ لإكمال دراسته، انقطعت أخبار هذه الفتاة عنه، إذ لم ترد عليه جواب أي رسالة أرسلها، ولدى عودته إلى إستانبول عام ١٩١٤ اتصلت به الفتاة عن طريق امرأة تلقب بالسيدة الأم، ولنترك الكلام لزكريا سرتل:

فتاة من الدونمة:

ذهبت السيدة الأم إلى الفتاة وبشَّرتها، ففاتحت الفتاة أخوتها الكبار بالموضوع وأبلغتهم برغبتها في الزواج مني، وفي أحد الأيام دق جرس التليفون:

- أنا المحامي جلال درويش أريد مقابلتكم، فقلت:

---

(١) زكريا سرتل من الشيوعيين الأوائل الأتراك إن لم نقل: إنه أول شيوعي تركي بقي أكثر من عشرين سنة خارج تركيا حيث مُنع من الدخول إليها بسبب دعايته للشيوعية مع زوجته صبيحة، وعندما صدر قانون العفو العام في عام ١٩٧٤ عاد زكريا سرتل إلى تركيا. [المترجم].

- تفضلوا يا سيدي.

- عفوًا، إنني مضطر لبحث أمر مهم معكم، هل نستطيع اللقاء في الساعة الخامسة في المكان الفلاني؟

- أنا مستعد بالطبع.

انتهت المكالمة فوضعت سماعة الهاتف، كان العمل يسير على ما يرام، فجلال درويش هو الأخ الأكبر للفتاة، أيقنت أنه تبنى الموضوع.

التقينا في الموعد المحدد وجلسنا متقابلين، كنت أشعر بنفسي أنني أنا المخطوب وليس الخاطب، أما جلال درويش فيتفحصني من جانب، ويكلمني دون أن تفارق الابتسامة شفتيه:

- علمت أنك تريد الزواج من أختي، أريد أن أفهم درجة جديتك في هذا الموضوع.

كانوا على قدرٍ كافٍ من الاطلاع على شخصيتي وعلى أحوالي، فأرادوا هذه المرة مشاهدتي من قرب؛ لأن القرار الذي سيتخذونه قرار له أهميته، حتى إنه يتصف بصفة تاريخية لأن الفتاة كانت من « الدونمة ».

الـدونـمـة:

الدونمة كانوا حفنةً من اليهود هربوا من ظلم محاكم التفتيش في أسبانيا في القرون الوسطى والتجأوا إلى الدولة العثمانية واستقروا في سلانيك. ثم دخلوا في الإسلام، ومع تركهم لدينهم فإنهم لا يُعتبرون مقتنعين بالدين الإسلامي.

لقي هؤلاء مقاومة ممن جاورهم، وكانوا لا يتقيدون بأي قاعدة من قواعد الإسلام، لا يُصَلُّون ولا يصومون ولا يخالطون المسلمين والأتراك، يعيشون منغلقين على أنفسهم، أذكياء نشيطون، ماهرون محببون إلى النفس، لكنهم يعيشون حياة منزوية لا يدخلون في المجتمع التركي ولا يناكحون الأتراك، ويبقون بهذه الحالة مستمرين في المحافظة على كيانهم الضيق.

معظمهم كان يشتغل بالتجارة، لذلك كانوا على علاقة دائمة بأوربا حيث أثّر فيهم المجتمع الأوربي تأثيرًا ظاهرًا، كانت أرباحهم جيدة ومستواهم الاقتصادي أعلى من مستوى غيرهم من المجتمعات، وعندما هاجروا من سلانيك إلى

إستانبول تركز أكثرهم في حي نشانطاش وشيشلي[1]، واستمروا على وضعهم الخاص السابق.

ولكي لا يُضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى المدارس التركية أسسوا مدرستين خاصتين بإستانبول هما: ثانوية فيضية، وثانوية الترقي.

فالبنت التي طلبتُ يدها هي من هذا المجتمع، فإن رضي أهلها فسأكون أول تركي يتزوج بفتاة من الدونمة.

اهتمام الاتحاديين بأمر زواجنا:

جلال درويش رجل درس الحقوق في إستانبول فتوسعت نظرته، وأيقن تفاهة هذه العادات القديمة، والحقيقة أن مجتمع الدونمة بعد هجرته إلى إستانبول بدأت فيه الهزات والتخلخلات، وسيكون لقرار اندماجهم بالأتراك الآن الأثر الحاسم في كسر الانزواء والانغلاق وتفتيت تماسك هذا المجتمع.

مرّ على لقائنا أسبوع واحد عندما دعاني جلال درويش إلى طعام في بيته، تعرفت بهذه المناسبة ولأول مرة على الفتاة التي ستكون في المستقبل رفيقة عمري.

---

(١) حيان مجاوران من أحياء إستانبول الأوربية. [المترجم].

أبلغت اللجنة المركزية للاتحاد والترقي بأنني على وشك الزواج بفتاة من الدونمة، فطلبني الدكتور ناظم الذي يعتبر عضوًا مرموقًا في هذه اللجنة، فهنأني وسألني إذا كنت على علم بأهمية العمل الذي أزمعت القيام به قائلًا:

لعلك لا تدرك أهمية الموضوع، إنك تمهد الطريق إلى اندماج وتوحُّد مجتمعيْن نظرا إلى بعضهما عبر مئات السنين نظرات الريبة والشكوك. إنك تُنزل الضربة القاضية لانعزال الدونمة، علينا أن نقيم هذا الحدث كما يجب، وأن نحتفل بتوحيد الدونمة والأتراك، يجب أن نعتبره حدثًا قوميًّا وتاريخيًّا، فقلت:

- سيدي، ما العمل الذي تريدون أن تقوموا به؟

- سنعقد نحن نكاحكم، وسنعلنه في الصحف، ستخرج هذه الحفلة عن كونها حفلة عائلية وستصبح حدثًا قوميًّا.

طلعت باشا يحضر الحفلة:

عُقد نكاحنا في قصر صبحي باشا بإستانبول، فكان وكيل الفتاة في العقد هو رئيس الوزراء ورجل الاتحاد والترقي القوي طلعت باشا. أما وكيلي فكان توفيق رشدي الذي

أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجية، وحضر الحفلة كبار رجال الاتحاد والترقي. كانت الفتاة في قسم الحريم أما أنا فكنت بين الرجال.

خاطبني طلعت باشا مازحًا:

- لن نعطيك ابنتنا دون مقابل، نريد ألف ليرة. ومع أن كل مصاريف الحفلة كانت على الاتحاديين، قلت مجيبًا لطلعت باشا: إنني مستعد لدفع ما طلبتموه، وفي اليوم التالي كتبت الصحف عن هذه الحفلة كل التفاصيل. فكان لزواجنا أثرٌ كبير في إقدام كثير من الشبان والبنات من الدونمة على الزواج من الأتراك وهكذا أصبح الانكماش والانزواء عندهم في سجل التاريخ.

هذا ما ذكره زكريا سرتل في مذكراته التي طبعت في إستانبول عام ١٩٦٨.

ونحن بدورنا سنورد بعض الإيضاحات حول معلومات زكريا سرتل ونقول:

١ - اسم « فتاة الدونمة » التي تزوجها زكريا سرتل هو صبيحة، سميت فيما بعد صبيحة زكريا سرتل، قامت مع

زوجها بعدة نشاطات في فترة الهدنة وفي العهد الجمهوري، ثم أسسا معًا عام ١٩٤٥ الجريدة الشيوعية « طان ».

وأخيرًا هربا من تركيا عام ١٩٥٢، وتوفيت الزوجة عام ١٩٦٨ في باكو بروسيا ونُشرت مذكراتها في إستانبول عام ١٩٦٩.

٢ – إن ما كتبه زكريا سرتل من أنه بهذا الزواج استطاع القضاء على عقيدة الدونمة وعلى انزوائهم، أمر غير وارد، والحقيقة أن الدونمة هم الذين اصطادوه وأخذوه، إنه شاب تركي أتم تحصيله الجامعي، وانسلخ من دينه، وهذا أثمن صيد للدونمة.

٣ – جلال درويش (أخو الفتاة) ماسوني نشيط، عضو في « محفل النجاة » الذي تأسس في إستانبول عام ١٩١٦، وناطق باسم هذا المحفل. بالمناسبة أسس هذا المحفل جمعية حماية الأطفال في إستانبول.

٤ – إذا تذكرنا أن جمعية الاتحاد والترقي واقعة تحت تأثير اليهود، وإن كبار رجال الاتحاد والترقي ماسونيون تبين لنا أن الاهتمام بهذا النكاح ليس وليد الرغبة في توحيد

الأتراك والدونمة. وفي رأينا ليس للقومية التركية أية منفعة في هذا الاندماج.

٥ - طلعت باشا ماسوني من محفل فيريتاس بسلانيك، ثم أصبح أول « أستاذ أعظم » للتنظيم الماسوني الشوري الأعلى في إستانبول عام ١٩٠٩، كان طلعت باشا موظفًا في دائرة البريد قبل أن يسجله أستاذ عمانوئيل قره صو اليهودي في هذا المحفل، أصبح هذا اليهودي عام ١٩٠٩ نائبًا عن سلانيك في مجلس « المبعوثان »، وكان رجاله من الاتحاديين يديرون دفة الحكم، فأصبح طلعت باشا رئيسًا للوزراء ما بين ٤ من شباط ١٩١٧ و ٨ من تشرين الأول ١٩١٨.

* * *
* *
*

الدونمة (الرجوعيون) بقلم معتنقيها

في اليوم الرابع من شهر تموز عام ١٩٢٣ وقَّعت الدول المشتركة في اجتماعات لوزان على معاهدة الصلح المسماة بمعاهدة لوزان، وبموجب هذه المعاهدة تقرر إجراء تبادل الأتراك الموجودين في اليونان بالروم الموجودين في تركيا.

وفي أواخر عام ١٩٢٣ حيث كان التبادل يجري على قدم وساق تقدم رشدي بك وهو دونمة من حزب القره قاش تقدم بعريضة إلى المجلس الوطني التركي قال فيها منبهًا:

« إنه بناء على قرار التبادل يفترض أن يكون التبادل بين أتراك وروم حيث لا يقبل غير التركي وإن كان مسلمًا، ولكن هناك أناس ليسوا أتراكًا وليسوا مسلمين دخلوا في هذا التبادل إنهم دونمة سلانيك ».

وعلى إثر هذه العريضة قامت ضجة في صحافة ذلك الزمان فقفزت مسألة الدونمة إلى مقدمة الموضوعات في هذه الصحافة، وأهم ما نشر في هذا الموضوع هو عريضة

رشدي بك، واتهامات الدونمة له عبر جريدة الوطن وجوابه على هذه الاتهامات، وجريدة الوطن جريدة ناطقة باسم الدونمة يرأسُ تحريرها الدونمة أحمد أمين[1].

وسنورد هنا ما يلي:

١ - عريضة رشدي بك إلى المجلس الوطني التركي.

٢ - نص المقال الذي نشرته جريدة الوطن في اتهام رشدي بك بأنه مُغرض بعيد عن الحقائق.

٣ - جواب رشدي بك على اتهام جريدة الوطن دونمة سلانيك.

٤ - مقتطفات مهمة من المقالات المسلسلة المنشورة في جريدة الوطن بعنوان: صفحة غامضة في التاريخ.

* * *
* *
*

(١) هو أحمد أمين بالمان المشهور بتقدميته المزعومة مع مناصرته لليهود.

١ - عريضة رشدي بك

المقال الأول

في الأول من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٤ أرسل محمد رشدي بك قره شزاده عريضة إلى المجلس الوطني التركي حول الدونمة، وقد نشر نص العريضة في جريدة اقشام في عددها الصادر بتاريخ الرابع من كانون الثاني عام ١٩٢٤ **وإليكم ملخص العريضة:**

إن الفكر العام لدى مجتمع من المجتمعات يجب أن يكون متجانسًا في عوامله المادية والمعنوية.

إن هذا العصر هو عصر القومية، والدين أمر وجداني داخلي، لا يمكن أن يقاس بمقاييس مادية، فلم يبق هناك من يعتمد في علاقاته مع الأمم الأخرى على عوامل متخيلة وموهومة. المجتمعات القومية التي توارثت مفاهيمها المادية والمعنوية أبًا عن جد هي الأساس في هذه العلاقات.

فأولى المسائل التي يجب أن تحققوا فيها: هي مسألة دونمة سلانيك الذين هربوا من محاكم التفتيش الأسبانية قبل ثلاثة قرون خلت، والتجأوا إلى كنف الأتراك، ثم

تستروا بالاسم واللباس الإسلامي زيفًا بأمر من رئيسهم المتهم بجريمة سياسية، إنهم بطوائفهم الثلاث يهودُ المنشأ والسيرة، ليست لهم أية علاقة وجدانية أو روحية بدين الإسلام، فهم كباقي اليهود لم يختلطوا بالأتراك والمسلمين على مدى قرون ثلاثة، متمسكين بجماعتهم وبطقوسهم وبتعاليمهم الباطنية.

وفي عهد الدولة العثمانية المنقرضة قبلوا الإسلام بصورة ظاهرة ورسمية فَسُجِّلوا في عداد المسلمين، وقد أدى خوفهم من تعصب المجتمعات الإسلامية إلى ارتدائهم مختلف الأزياء بقصد تضليل هذه المجتمعات.

إنهم تغلغلوا في صفوف المجتمع المسلم تحت أوصاف وأشكال مختلفة حتى صاروا من أصحاب الثروات الطائلة، وسيطروا على المراكز التجارية والاقتصادية المهمة فأصبحوا عاملًا خطرًا على هذه البلاد.

فعلى المجلس الوطني التركي الذي يخطط للمستقبل على أسس قومية، ويعمل على استقدام أتراك مقدونيا، أن يسعى إلى حل قضية الدونمة حلًّا جذريًّا، وإلى إنقاذ الأمة

من الشبهات والتردد، وإلى إنقاذ بنيتها الاقتصادية والتجارية من هذا الخطر المحدق.

لقد حصرت الدولة التبادل على الأتراك، حتى إنها لم تقبل المسلمين الأرناؤوط أن يهاجروا إلى تركيا، وتسعى الآن إلى تشتيت غير الأتراك في نواحٍ متفرقة من البلاد، لتجعل من القومية التركية متجانسة مـاديًّا ومعنويًّا، مع أن الدونمة ليسوا أتراكًا، لقد أثبت التاريخ وكذلك الواقع الحالي أنهم لم يمتزجوا بغيرهم من أي عنصر، كما أنهم ليسوا بمسلمين لأن مسلمي سلانيك يعرفونهم، كما أن كثيرين ممن فضلوا الشرف والحمية على الدنية من هؤلاء الدونمة (مثلي) أقر وأثبت هذه الصفات فيهم.

والآن أخاطبكم من صميم قلبي وأسألكم:

يا أعضاء المجلس الوطني الكرام يا من ضحيتم بكل غالي ونفيس في سبيل استقلال الأمة التركية وسلامتها، ما رأيكم بهؤلاء؟ هل ستبادلون بهم؟ ».

* * *
* *
*

٢ - جواب جريدة « الوطن »

أما جريدة « الوطن » التي يصدرها الدونمة فقد بحثت عن عقيدة سباتاي القديمة بأنها خرافة من الخرافات، وكما سترون فيما بعد أن قسمًا من الدونمة تخلَّوْا عن قسم « العقيدة ».

وإليكم نص مقال جريدة الوطن:

تنشر الزميلة « يني كون » العريضة المقدمة إلى المجلس الوطني بتوقيع محمد رشدي قره قاشزاده، يبحث فيها صاحبها عن مجموعة بشرية أسلمت قبل قرنين ونصف قرن وأقامت في سلانيك، ويدّعي صاحب العريضة بأن هؤلاء ليسوا تركًا ولا مسلمين، وأنه يجب أخذ هذه الحالة بعين الاعتبار أثناء إجراء التبادل بين أهالي مكدونيا، ويطالب (بحرارة) بتصفية قضية الدونمة في سلانيك.

حاولنا أن نجد سبب الخلاف بين رشدي بك وبين قومه، ذلك الذي ساقه إلى تقديم مثل هذه الوشاية فحصلنا على ما يلي:

كان رشدي قره قاش في برلين عندما توفيت زوجته

فصدم بخبر الوفاة صدمة عنيفة، انتابته حالة عصبية، وبعد مدةٍ تزوج من جديد، فلم يكن الزواج الجديد موفقًا، الأمر الذي أدى إلى خلاف شديد من أجل النفقة فتحاكما، وقد هاجم رشدي بك خصمه بشدة قائلًا: إنها من الدونمة لكن المحكمة لم تسمع لأقواله، ثم زادت حالته العصبية بعد فترة، فترك الحياة العملية لأولاده، وقطع علاقاته كلها مع أقاربه، وصار يفكر بالانتقام منهم، لذلك شد الرحال إلى أنقرة قبل أسبوعين وقدم العريضة التي نشرتها الصحف، فانتقم (برأيه) لنفسه بهذه العريضة.

أصل الموضوع:

قبل قرنين ونصف من الزمان وفي عهد السلطان مراد الرابع أعلنت فئة من الناس تقدر ببضعة آلاف تقطن في سلانيك إسلامها، بقيت هذه الفئة مدة من الزمان على حالتها المجردة، ثم انقسمت إلى فرق، يجدر إنعام النظر إليها من الناحية الاجتماعية والعلمية، وقد انتشرت فيهم خرافات لن تصادفها إلا في القبائل البدائية في أستراليا، ثم انشطرت إلى مجتمعات صغيرة جدًّا بقيت في معزل عن

بعضها البعض وعن الأتراك فلم تناكح إلا بعضها، ومع ذلك فقد تخلقوا بالخلق التركي الإسلامي، واعتبروا أنفسهم دائمًا مسلمين أتراكًا، فمنهم من سلك طريق التجارة ومنهم من ترقى في وظائف الدولة حتى أصبح من هؤلاء النظراء والمدراء والموظفين الكبار وقاموا بكثير من الخدمات الجُلَّى للدولة.

ونورس بك الذي قام باغتيال الأخوة باكستون في بخارست هو أحد أفراد الدونمة، إنه أول من أطلق النار على جنود الاحتلال في أزمير فكان هو وقريبه سلانكلي شكري بك مـن الشهداء الأُوَل[1].

وبتقدم العلم والمعرفة كانت الحدود التي وضعتها فئة الدونمة البدائية والمضحكة، قد انهارت، وبدأت العلاقات الاجتماعية والمناكحات مع الأكثرية التركية، تنتشر وتتوسع فلم يبق أي فرق بينهم وبين الأتراك، نعم هناك أفراد أصلهم من الدونمة، تصرفاتهم تقاس على أساس فردي فمنهم الصالح الحسن، والسيئ، ومنهم الوطني والخائن، ومنهم

(١) نورس بك أو حسن تحسين الصحفي، يحتفل بذكرى مقتله كل عام وقد جعلوا منه بطلًا قوميًّا يستحق التبجيل والاحترام.

المخلص والمرائي، فالمحسن يثاب على إحسانه والمسيء يعاقب على إساءته.

لا شك أن إثارة الفتنة والفرقة في البلاد بغرض الانتقام الشخصي أمر مذموم، وأي شيء أقبح وأبشع ممن يسعى إلى عزل أناس قبلوا الإسلام قبل قرنين ونصف وأصبح أكثرهم أتراكًا حقيقيين.

إننا نأمل من كل قلوبنا أن يسعى المجلس الوطني - الذي وضع يده على هذا الموضوع عن طريق المصادفة - إلى التحقيق في الأمر ومعرفة الوضع الحالي، وإلى وضع حد لاستغلال هذا الموضوع في إثارة الفتن.

* * *
* *
*

٣ - رد رشدي بك على جريدة الوطن

(المقال الثالث)

نشرت جريدة الوقت في عددها الصادر بتاريخ ٧ من كانون الثاني ١٩٢٤ رد رشدي بك على جريدة الوطن هذا نصه:

كتاب مفتوح إلى الدونمة:

كتاب مفتوح من محمد رشدي قره قاشزاده في أنقرة إلى دونمة سلانيك كافة:

أيها السادة:

منذ أكثر من ثلاثة قرون خلت عشنا نحن الدونمة في كنف الشعب التركي العريق وتحت جناح رحمته، وبقينا على حالة شديدة من التعصب لمذهبنا، باطننا يخالف ظاهرنا في كل أفعالنا وحركاتنا.

لِنُسلِّم جدلًا بأن الدولة العثمانية لم تلجأ إلى إجبارنا على ترك التعاون مع بعضنا والتفاخر به، والآن وقد حققت الثورة التركية الانتصارات تلو الانتصارات، ونحن ما نزال منعزلين في محيطنا الضيق، فماذا تنتظرون؟

لا أريد النفوذ إلـى مفاهيمـكم ومعتقداتكم، ولكـن ألا تعلمون أن الشعب التركي يرغب أن يكون كل الذين يعيشون على أرضه من مشرقها إلى مغربها على قلب رجل واحد؟ وفكر وهدف واحد؟ ألم تفهموا؟ إذن فماذا تنتظرون؟ أوَ تظنون أن الأتراك سينخدعون ببضعة أشخاص منا خالطوهم رياءً ونفاقًا، ليصبروا على طفيلية خمسة عشر ألفًا منا نمتص دماءهم ونأكل من خيرات بلادهم؟

أيها السادة إنكم لمخطئون!

إن هذا البلد قد كفل حق الحياة على أرضه حصرًا على الأتراك؛ لأنهم رووا كل شبر من هذه الأرض بدمائهم فحافظوا عليها.

وفي الأيام الأخيرة الحالكة السواد حيث لم يبق للأتراك من يعينهم على نوائب الدهر، لم يخطر على بال واحد منكم أن يفتدي بشيء ولو يسير من دمه أو ماله أو ثروته.

وانصرفتم إلى جمع مزيد من المال والثروة، أما الأتراك الذين أصبحوا محرومين من كل عون فقد ربطوا قلوبهم بربهم وتوكلوا عليه، وجابهوا هجوم الأعداء بعزيمة ثابتة

وصمود عُرفوا به، فدافعوا عن الوطن وتغلبوا على عدوهم. أوتظنون بعد هذه الحال أنكم ستتركون على عاداتكم الموروثة تنعمون بعيش طفيلي رغيد ورفاهة وسعادة دون أن ينالكم منهم أي رد فعل؟

لقد أيقنتُ أن ما كنت أتوقعه في حداثة سني سيتحقق على يد المجلس الوطني التركي، إذ أصدر هذا المجلس قانونًا يمنع اقتناء الخنازير كي لا تضر بالمزروعات، فهل تظنون أن أمة تفكر بمثل هذه الدقة في أمورها، تُبقي في بيئتها على عنصر غريب عنها يمتص خيراتها؟ إنكم لن تجدوا واحدًا من الشعب التركي يركن لمثل هذا الوضع.

واليوم ليس لنا إلا اتباع أحد سبيلين: إما أن نلتحم - بقانون خاص - بالشعب التركي التحامًا تامًّا نشاركهم في الأفراح والمصائب وإما أن نبحث عن إمكانات مادية ومعنوية خارج حدود هذا الوطن لنضع فيها كيانًا خاصًّا بنا.

أما ما نشرته جريدة الوطن بتاريخ ٤ من كانون الثاني ١٣٤٠ حول ما يدعيه قريبي وابن بلدي فأمر غير صحيح مطلقًا، لم أكن يومًا تحت سيطرة نزوة عصبية أو عاطفية، وليست إفشاءاتى هذه نتيجة لتحريض أو تلقين أحد من

الناس، إنها فقط نتيجة فكر كان يراودني منذ شبابي، ولما رأيت العواقب الوخيمة التي كنت أتوقعها منذ ذلك الزمان قد بانت علاماتها، وجدت الفرصة ملائمة لأن أضع كل الحقائق أمام الناس، فالمجلس الوطني الذي وفِّق في تطهير البلاد من كل الملوثات لقادر على إزالة هذا الموضوع النجس من أساسه بإذن اللَّه. وسيأتي اليوم الذي يقوم فيه من اتهموني بالخفة والعصبية، فيعتذرون مني ويقبِّلون يدي ومن اللَّه التوفيق.

محمد رشدي قره قاشزاده

* * *
* *
*

٤ - المقال الرابع

بعد الكتاب المفتوح الذي وجهه رشدي قره قاشزاده عبر جريدة الوقت بتاريخ ٧ من كانون الثاني عام ١٩٢٤، نشرت جريدة الوطن بتاريخ ما بين ١١ - ٢٢ من كانون الثاني ١٩٢٤ سلسلة مقالات بعنوان « صفحة غامضة من التاريخ » عن نشأة الدونمة من عهد مؤسسها سباتاي سيفي حتى العصر الحاضر ولم تفصح الجريدة عن اسم كاتب هذا المسلسل بل اكتفت بذكر: مدقق للتاريخ. **وسندرج هنا ما نشرته الجريدة بتاريخ ٢٠ من كانون الثاني:**

« بتاريخ ١٨٨٤ أصدر شباب الدونمة مجلة زهرة الأدب، وقد قالوا عن سيفي بأنه: دجال عاش في القرن السابع عشر، ومن المضحك أن يتَّبعه الناس فيُشَكِّلوا مذهبًا لأنفسهم، فلا يناكحون الأتراك ولا يخالطونهم... ».

مجلة زهرة الأدب كانت ناطقة باسم شباب الدونمة وكان أحد محرريها عثمان توفيق بك والد أحمد أمين بالمان صاحب جريدة الوطن ورئيس تحريرها.

ويحتمل أن تكون سلسلة المقالات هذه، هي لعثمان

توفيق بك الذي كان يبلغ من العمر ثمانية وخمسين عامًا وذلك في عام ١٩٢٤ .

استمرت مجلة زهرة الأدب في سلسلة مقالاتها هذه على تسمية سباتاي سيفي بالدجال.

ولكن علاء الدين غوسه ذكر في كتابه « سباتاي سيفي » أن الدونمة لم يكونوا في تسميتهم هذه مُجدِّين.

ولا نعرف ما إذا كان مقصد هؤلاء بإلصاق هذه التسمية برجل آمنوا به نبيًّا للتمويه، وما إذا كان مذهبهم يوافق على قولتهم هذه.

ونورد الآن بعض المقاطع المهمة من سلسلة « صفحة غامضة من التاريخ » التي نشرتها جريدة الوطن:

الهدف من نشر هذه السلسلة:

« لم يكن هدف كاتب هذه السطور الدفاع عن منظمات اجتماعية عجيبة غريبة تشكلت قبل عصور خلت في سلانيك، أو التهجم عليهم لأغراض شخصية، بل هدفه الوحيد هو إظهار حقيقة تاريخية بكل جوانبها، وتصفية ذيول وضع مضحك بصورة قطعية، ففي ناحية من نواحي سلانيك

جرت قبل عصور سلسلة من الأحداث الغامضة والمثيرة في فنجان ماء، ما بقي منها اليوم سوى بعض الأنقاض المبهمة، هذه الأنقاض يجب أن تُزال أيضًا ويكشف الستار وتبقى الساحة نظيفة براقة ».

« والآن يقوم الجميع بما يليه العلم والعرفان دون أن يتعرضوا لضغط اجتماعي، وقد فقدت فئتان من ثلاث فئات في سلانيك قِوامَ وجودها كمنظمة، أما الثالثة فما زالت تسبح في أنقاض من الخرافات والترهات، فيقتضي تصفية الموضوع تصفية تامة.

فمسألة السلانيكيين التي كانت موضوع جدال حتى هذا التاريخ مسألة تاريخية ترجع إلى قرنين ونصف من الزمان، ولهذا التاريخ صفحات غريبة مضحكة مثيرة ومفيدة وسأكتب ما جمعته من حقائق في هذا الموضوع رسالة أخدم فيها الحقيقة ».

ألوف المخدوعين:

« في تلك الفترة ظهر أناس كثيرون تشبهوا بسيفي وادعوا الكرامة لأنفسهم دون أن يحتاجوا إلى كثير من الذكاء فاستطاعوا أن يجمعوا حولهم المئات بل آلاف الناس.

ولمعرفة أسباب بقاء اسم سيفي مذكورًا عبر ثلاثة قرون ليصبح موضوع نقاش في صحف العصر الحالي، وعدم غيابه في مجاهل التاريخ، يجب أن نبحث عن سلسلة من المصادفات الغريبة:

« ففي تاريخ ١٣٠٠[1] أصدر شباب الدونمة مجلة زهرة الأدب وقد قالوا عن سيفي بأنه دجال عاش في القرن السابع عشر، ومن المضحك أن يتبعه أناس فيشكلون مذهبًا لأنفسهم ولا يناكحون الأتراك ولا يخالطونهم ».

« كان هَمُّ هذا الجيل أن يخرج من التنظيم القبلي، وأن ينسى ويُنسي مكان خروجه إلى الدنيا، فإذا ما عُيّن أحدُهم موظفًا في بلد، لم يعترف أنه وُلد في سلانيك بل ذكر مكانًا آخر غير هذه المنطقة ».

« وقبل نصف قرن من الزمان بدأت ردود الفعل العنيفة تظهر تجاه خرافات مصطفى جلبي وعنبرجي، حيث ثار الجيل الجديد فوضعوا كافة العلاقات الاجتماعية تحت ضوابط أخلاقية، فأسست مدرسة « فيض الصبيان »، ثم

(١) بالتاريخ الرومي الذي يقابل عام ١٨٨٤.

مدرسة « فيضة » فتربَّى الجيل الجديد تربية حقيقية، وتخرج من هذه المدارس معلمون أكفاء ».

« لم يجد أصحاب المصيدة[1] ضرورة لاختلاق خرافات جديدة خاصة بهم، فحافظوا على قِسْمٍ مما توارثوه محافظة سطحية، وبدأوا في وقت مبكر بتعلم اللغات الأجنبية وسلوك طريق التغريب، وحققوا نجاحًا عظيمًا، خاصةً في النواحي التجارية، وأسسوا مدرسة جميلة أسموها مدرسة الترقي، وربوا جيلًا جديدًا على أسس قويمة ».

النتيجة:

أما المقال الحادي عشر من هذه السلسلة فيقول:

« القبائل الثلاث التي نشأت في سلانيك قبل قرنين ونصف وعاشت حياة مليئة بالأسرار، مرّ عليها عامل الزمن فقضى على وجودها، فأصبحت في طي النسيان، ومع هذا فهناك سلسلة من الأنقاض ما زالت موجودة يتعين تصفيتها وإزالتها، أما بقايا الفوارق والاختلافات فبسبب عدم تصفية هذه الأنقاض ».

---

(١) أو حزب إبراهيم أغا.

« وبغضِّ النظر عن الدوافع التي أدت إلى لجوء رشدي قره قاش لمثل هذا التصرف، فإنه كان وسيلة حسنة إلى تحقيق هذه التصفية المنشودة وإلى تمزيق حجاب الأسرار الذي خلفته العصور ليصبح الموضوع كله في حكم الماضي ».

وأفراد القبائل الثلاث في سلانيك، وإن كانوا على درجة وسطى من الذكاء، فإن بقاءهم عصورًا تحت تأثير التعاليم التي كان يطلقها رجل دجال، وانتشار الخرافات المضحكة التي تصادف في علم المجتمعات لدى أكثر المجتمعات بدائية واستمرارها بينهم مدة طويلة لَحدثٌ تاريخي جدير بالحيرة والدهشة.

لماذا هذه العزلة؟

« إن التأويل العلمي المقبول لهذه العزلة هو أن مجتمعًا قوامه مائتا أسرة كانت تسكن في محيط ضيق قبل قرنين ونصف من الزمان. لم تستطع التكيف مع الجو الذي تعيش فيه لأول وهلة، فنشأت بذلك ضغوط من المجتمع الآخر الأمر الذي أدى إلى ردة فعل لدى هذا المجتمع الضيق، فربط أفراده ببعضهم، فانتشرت الخرافات بين هؤلاء الأفراد الذين عاشوا حياة جمود وانعزال ».

« وعلى مدى القرون: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر لم يكن عدد الرجال الذين أثاروا الضجة التي أثارها سيفي، لكن عامل الزمن كان يزيل بسهولة كل الخرافات التي كانوا ينسجونها حول أنفسهم، فلم يمض بضع سنوات حتى زالت كل الآثار التي خلفها هؤلاء الرجال ».

مسألة الزواج:

« السبب الرئيسُ في عزلة قبائل سلانيك حتى عن بعضهم، وبقائهم على هذه الحال مدة طويلة هو عدم التزاوج مع غيرهم، ومع أن الخرافات قد تلاشت في الجيل الجديد قبل نصف قرن من الزمان فحاجز الزواج بقي مدة أطول، وتأويل ذلك هو استمرار تأثير الأبوة والأمومة على أولادهم، ولطريقة الزواج في بلادنا تأثير على بقاء هذا الوضع أطول مدة ممكنة، فهذه الطريقة كانت تقتضي تحقق الزواج ضمن مجهولات شتى، فالمدركون للأمور ارتأوا أن يظل الجيل الجديد على العرف السابق في عدم التناكح مع غيرهم.

ولكن تغير المفاهيم والوسائل أدى إلى هدم كل السدود والحواجز وذلك بتحقيق الثورة الاجتماعية الجديدة ».

مسألة القبور:

« ولدى المسنين من الطائفة التي ينتسب إليها رشدي بك نوع من التساند الخاص، هؤلاء المسنون اعتادوا أن يقيموا لأنفسهم مقابر خاصة بهم ».

« ليس منا من يستنكر أن يقوم واحد من الناس بمساعدة معوزين معينين يَعْرفُ أوضاعهم المادية والمعنوية، ولكن يجب القضاء على الحواجز التي وضعتها هذه الفئة في الإعانات، ويجب البحث في هذا الأمر ضمن حدود الأمة التركية المسلمة وتصفية ما عداها من الحدود ».

« العادة المتبعة في المقابر عادة مضحكة، إنه أمر طبيعي أن يدفن كل إنسان موتاه في أي جهة من أي مقبرة، ولكن تخصص هذه الزمرة المندثرة لنفسها مقبرة معينة يعني الاستمرار في الانعزال والمخالفة.

إن الخرافات القديمة مضحكة لدرجة أن يتعين على كل ذي عقل سليم وفكر راجح أن تأخذه العصبية في القضاء على كل أثر من آثار هذه الخرافات ».

التنظيم الجماعي:

« القبائل الثلاث التي عاشت عبر الأجيال في سلانيك مضحكة من حيث كونها طريقة مبنية على الخرافات والأوهام ومن حيث كونها جمعية سرية، وضارة من حيث أسلوبها المتبع في الزواج، ولكن هناك نقطة واحدة فقط مهمة في حياتها الاجتماعية جديرة بالتمعن فيها: هي الفوائد الاجتماعية التي حققتها هذه الفئة الصغيرة، ففي هذه العصور الثلاثة التي عاشتها القبائل الثلاث في سلانيك كان عدد الجناة والمنحرفين منهم قليلًا جدًّا، من النادر أن نصادف مثل هذه الحالة في مجتمعات أخرى، ويعزى ذلك إلى التعاون الوثيق بين أفراد هذه الفئات وإلى الرقابة الاجتماعية فيما بينهم، والحقيقة أن الحركات الاجتماعية لدى الأمم تسعى الآن إلى تحقيق مثل هذه الرقابة فإن استطعنا أن نشكل منظمات اجتماعية في المدن الكبرى مثل إستانبول، حققنا منافع عظيمة ومكاسب خيِّرة لحياتنا الاجتماعية ».

* * *

الاتحاديون والدونمة

من المعروف أن كبار رجال الاتحاد والترقي كانوا على علاقات متينة بالدونمة في سلانيك، يعقدون اجتماعاتهم المشتركة في المحافل الماسونية هناك.

واستطاع اليهود والدونمة والماسونيون وآخرون لهم مطامع في البلاد العثمانية أن يؤثروا في عقول الشباب المثقف ويسخروهم لخدمة أغراضهم على علم أو غير علم.

إنه موضوع يحتاج إلى دراسة وتحقيق واسعيْن، وسنكتفي بإيراد ما كتبه اثنان من الاتحاديين وواحد من الأجانب:

ونبدأ بما نشرته مجلة المحراب في عددها الصادر بتاريخ ١٥ من كانون الثاني عام ١٩٢٤ للكاتب الفرنسي جان برون.

يقول جان برون في آخر مقاله:

« أصحاب المصيدة هم أذكى الأقوام والأجيال التي تعيش في مدينة سلانيك. انتسب معظمهم إلى منظمة الاتحاد والترقي.

وخلاصة القول: أنهم قادوا الجانب الأكبر من ثورة تركيا الفتاة[١].. هذه الثورة قام بها من حيث الأساس اليهود الدونمة، الذين أظهروا إسلامهم لكنهم ظلوا في الحقيقة يصارعون الإسلام، وبقيت علاقاتهم تقتصر على الأفعال الظاهرة فقط.

هؤلاء الذين لبسوا حلل المسلمين زورًا وظلوا يهودًا في الحقيقة ومسلمين في الظاهر، كان لهم نصيب كبير في مقدرات الشعب التركي وتطوره إلى الوضع الحالي ».

الاتحاديون وآل أيبكجي[٢]:

أما ما كتبه الاتحاديون فنجده في مذكرات رجل اتحادي اسمه: غالب باشا الذي كان المفتش العام لقوات الدرك في إستانبول، وقد نشرت مذاكرته مجلة الحياة في عدديْها رقم ٦ و ٨ عام ١٩٦٦.

---

(١) أو ثورة الدستور التي تحققت على يد مدحت باشا ورفاقه.

(٢) أسرة من الدونمة لها – حاليًا – باع طويل في مجال الإعلام بتركيا وجريدة « ملليت » أي القومية هي إحدى صحف الدونمة اليسارية لصاحبها عبدي أيبكجي، كما أن المدير العام السابق للإذاعة والتليفزيون بتركيا إسماعيل جسم أيبكجي هو أحد أفراد هذه العائلة. [المترجم].

فَحَوْلَ حوادث ٣١ من آذار المؤسفة[1] يذكر غالب باشا أنه خشي أن يناله سوء من العصاة فيعتصم بداره، وفي اليوم الرابع من بدء العصيان ييمم وجهه شطر مخازن آل أيبكجي السلانكلي:

« لم أستطع مغادرة بيتي حتى يوم السبت الرابع من نيسان، ولم أتمكن من الحصول على أية معلومات صحيحة عما يحدث، الأيام الأربعة التي قضيتها في البيت كانت مملة ومحزنة، أما الصحف فكانت تزيد المرء كدرًا على كدره ».

« كتبت الصحف أنه في اليوم الثالث من نيسان تحركت بعض الوحدات العسكرية من سلانيك، لكن هذه الأخبار لم تعرف درجة صحتها. خرجت في اليوم الرابع من شهر نيسان من داري وعبرت إلى الجهة الغربية من إستانبول، ومررت بطريقي إلى مخازن آل أيبكجي التجارية، فشعرت بأن رجلًا ذا لحية جعداء يتعقبني، حيث كانت هذه المخازن تحت المراقبة الدائمة ».

---

(١) الحوادث التي سبقت خلع السلطان عبد الحميد، لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجة.

اتحادي بين الدونمة:

أما المقال الثاني على لسان الاتحاديين فاخترناه من كتاب محمد رؤوف ليسكوفيكلي الذي كان عضوًا في جمعية الاتحاد والترقي، يعمل وفق ما تخططه له هذه الجمعية، ولمّا قبض عليه عام ١٨٩٥ أبعدته الحكومة إلى سلانيك (إن صح أن يقال عن إرسال مثل هؤلاء إلى سلانيك إبعادًا) فاعتبر هذا الإبعاد شرفًا ينسبه إلى نفسه فيصبح أحد أبطال الحرية!!.

عاش ليسكوفيكلي في سلانيك برعاية الدونمة، وفي عام ١٩١١ نشر مذكرات عن كفاحه من أجل الحرية، وجمعها في كتاب واحد أسماه: كيف كانت جمعية الاتحاد والترقي، لكاتبه: القائم مقام الإداري محمد رؤوف ليسكوفيكلي، ويقع الكتاب في ١١٢ صفحة، **يقول ليسكوفيكلي في الصفحة ٧٩ من كتابه عن الدونمة الذين أحسنوا إليه، في محاولة لتجزية إحسانهم:**

الدونمة يعشقون الحرية:

« الغريب أن الدونمة الذين يقيمون حصرًا في تلك

المدينة (سلانيك) ويُتهمون بالطمع الشديد لاشتغال أكثرهم بالتجارة، هؤلاء كانوا أشد صراعًا من أجل الحرية من غيرهم من المسلمين ».

« وكما سنذكر في الصفحات القابلة فإننا لقينا - أثناء صراعنا من أجل الحرية - مساعدات وتضحيات جسامًا من الدونمة، إن حبهم الشديد للحرية الذي يتناقض مع حرص هذه الجماعة على جمع المال والثروة، أوقع الشبهة في قلوب بعض أعضاء الجمعية فترة من الوقت، والواقع أن بعض الجهلة من المسلمين في سلانيك كانوا لا يحسنون الظن بإخوانهم في الدين (أي الدونمة) بناء على بعض المظان الباطلة التي تدور حولهم منذ أزمان بعيدة.

بعض الجهلة يعتبرون الدونمة كفارًا:

حتى إن بعض الجهلة ذهبوا بسوء ظنهم هذا شوطًا بعيدًا فشكُّوا في صحة عقيدتهم وسلامة إسلامهم.

وقد لقي هذا الظن الباطل رواجًا لدى من لم يطلع على الحقيقة من المسلمين في الممالك العثمانية الأخرى، الأمر الذي يدعونا إلى الاستطراد والتفصيل خارج هذا الموضوع.

الدونمة هم من اليهود الذي تشرفوا بالدين الإسلامي المبين قبل مائتي عام، ومن ناحية التقيد بالأحكام الدينية ليست هناك أية فروق بينهم وبين غيرهم من المسلمين، وتعلقهم الشديد بالإسلام وبالدولة العلية العثمانية على وجه الخصوص وحبهم لها وصدقهم وتفانيهم في سبيلها حقيقة ثابتة بكفاحهم من أجل الحرية، ولم نشهد عليهم أية أحوال أو تصرفات تفسح المجال لشبهات تحوم حولهم كما يظنه بعض الناس.

مسألة التزاوج:

إذن فما سبب فهم المسلمين الخاطئ لإخوانهم الدونمة؟ في رأينا هناك سبب واحد هو عدم مصاهرتهم للفرق الإسلامية الأخرى، والواقع أن الدونمة يأخذون جانب التعصب الشديد لبعضهم في مسألة التزاوج، وبذلك يحافظون على قوميتهم ذات النطاق المحدود.

إن هذه الحال لا بد أن تلفت انتباهنا، لكننا إذا رجعنا إلى الدونمة وسألناهم عن هذا التعصب وهذا التشدد فلن يتوانوْا عن تقديم الأسباب الكافية لرفع الظنون المتولدة عن امتناعهم عن التزاوج. يقولون:

« إننا إذا لجأنا إلى مصاهرة إخواننا في الدين ممن ليسوا منا، لفقدنا الأخوة المتبادلة المبنية على التعاون والمشاركة فيما بيننا، ومن جهة أخرى فإن بعض المسلمين من غيرنا يأخذون جانب اللامبالاة في حبهم لعيالهم؛ لذلك نرى الكثيرين من هؤلاء يفارقون رفيقات حياتهم دونما سبب، وحيال هذا الوضع فإن الحب الذي نُكنه لأولادنا يمنعنا من أن نرميهم بأحضان كل إنسان ».

السبب الثاني الذي ذكروه لا نستطيع أن نعتبره سببًا معقولًا؛ لأنه من الجنون أن نجزم بعدم وجود أناس من الأقوام الأخرى المسلمة يحبون زوجاتهم ولا يطلقونهن دون أي سبب كما أن الإنسان يمكنه التحكم في هذا الأمر فيختار الصهر الذي يريده أو البنت التي يريدها...

وبعد أن يورد التساند القائم بين الدونمة سببًا لانعدام العوز والحاجة فيهم، ويذكر بصورة مقتضبة عدم تزاوج فئات الدونمة الثلاث فيما بينهم، يقول:

وضع الدونمة التعليمي:

ويجدر أن نذكر هنا من تقدم الدونمة في العلم والعرفان

والتجارة، فالمؤسسات العلمية في سلانيك بلغت درجة عالية من التكامل والرقي لدرجة تفوقت فيها على المؤسسات العلمية في إستانبول كل ذلك بفضل مساعي الدونمة.

لقد خرّجت مدرسة الترقي للذكور ومدرسة فيضية للإناث عددًا كبيرًا من الطلاب والطالبات، بحيث يمكن أن تكون هاتان المدرستان في المستقبل جامعتين تفتخر بهما أمتنا، إن فوز طلبة سلانيك بالدرجات العليا في كل المسابقات التي تُجرى في المدارس الحكومية إن دل على شيء فإنما يدل على همم إخواننا الدونمة وعزائمهم القوية في التقدم والرقي».

وبعد كيْل المديح لعلم وذكاء الدونمة وبيان أنهم أصحاب اليد الطولى في المجال التجاري في سلانيك وحتى في إستانبول يقول:

«وجملة القول: أن الدونمة عنصر خيِّر في بلادنا من كل الوجوه لا شك في ذلك».

في نهاية هذه الأبحاث نحاول إيجاز ما ورد في الصفحات السابقة ونقول:

سبق أن لخصنا حياة مؤسس الدونمة سباتاي سيفي، ثم ذكرنا أن الدونمة دخلوا في الإسلام دخولًا ظاهريًّا لكنهم بذلوا كل الجهود الممكنة لإفساد المجتمع الإسلامي وتمزيقه من الداخل. وفي الصفحات التي تلتها ذكرت علاقة الدونمة بثورة الدستور وبالاتحاديين وذلك على لسان أحد الدونمة.

والآن نتساءل: هؤلاء الدونمة، أصحاب العقائد الباطلة، الذين بدأوا في أزمير واستقروا في سلانيك ثم رحلوا منها أخيرًا إلى إستانبول بأي وضع هم الآن؟ وهل هم الآن على خطتهم السابقة تجاه الإسلام والمسلمين؟ وإذا حصل تغيير في خططهم فما مبلغ التغيير وماهيته في هذه الخطط؟. وهل يمكن التميز بينهم وبين المسلمين الحقيقيين في هذا البلد[1]، بلد حرية الأفكار وبلد العلمانية؟ للإجابة على هذه التساؤلات يتعين إجراء دراسات مستقلة في هذا

---

(١) يقصد تركيا.

الموضوع، لقد وصلنا بالبحث إلى هذه النقطة، ونأمل بأن يتابع زملاؤنا الشباب البحث لوضع الأجوبة الشافية لكل هذه التساؤلات.

ولنا أن نُذَكّر إخواننا الباحثين بأنه يمكنهم أن يحصلوا على معلومات وافية في هذا الشأن من آل قرة قاش، وآل قبانجي وآل ديلبر وآل كبار وآل أيبكجي وآل شاملي وسائر الأسر السلانيكية المعروفة.

ولقد حاولنا البحث عن وسيلة أخرى يمكنها أن تنير للباحثين سبيلهم في الوصول إلى الحقيقة:

لعل القارئ يذكر بأن من الصفات المهمة للدونمة عدم مصاهرتهم للأقوام الأخرى، ودفن موتاهم في مقابر خاصة بهم؛ لذلك سمعنا من عدد ممن نثق بهم أن الدونمة يفضلون دفن موتاهم في مقبرة (وادي بلبل) الكائنة في القسم الأسيوي من إستانبول، ذهبنا إلى المقبرة المذكورة ورأينا هناك قبورًا فخمة مطلية بالقيشاني، ولقد استرعت انتباهنا أحجار الشواهد - حيث لم يُطلب من الزائر قراءة الفاتحة في كتابات أكثرها - التي تبين كنية المدفون تحتها، يُذكر فيها إن كانت امرأة بأنها بنت فلان وزوجة فلان. إنها

كانت واضحة وبليغة لدرجة أنها تمثل السجل الأساسي أو إن شئت فقل شجرة الأسر السلانيكية.

ومن الواضح أن يصل الباحث في نهاية المطاف إلى أن هذا العنصر يمكنه أن يفاخر الدنيا بأنه سيطر على مقدرات بلادنا فكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، إنه أمـر واضـح وضـوح الكتابات على شواهد القبور.

* * *
* *
*

أسرار الانقلاب العثماني

كتبه بالتركية

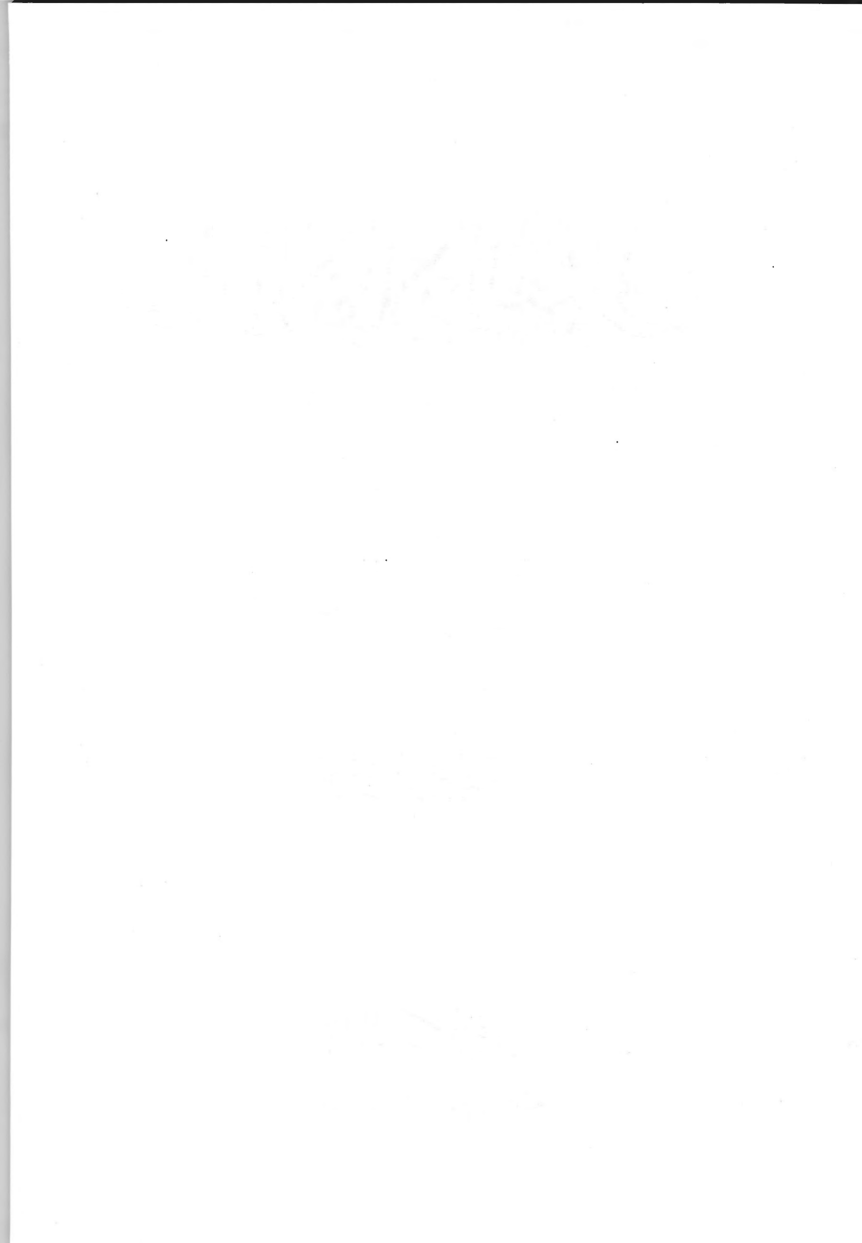
مصطفى طوران

ترجمة

كمال خوجة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

واقعة ٣١ من (آذار) يوم دامٍ في العهد النيابي للإمبراطورية العثمانية سبّبته سلسلةٌ من المؤامرات السياسية، حول هذه المأساة التي بدأت في ثكنة (طاش قشلة) العسكرية وانتهت بإزالة السلطان عبد الحميد عن عرشه، أُلفت كتب كثيرة، إلا أنه من المؤكد كونها مبتورة أو مختلفة، فهذه الكتب التي كانت حصيلة اقتناعات أو تفسيرات ابتدعها مؤلفوها بوحي من المؤثرات السياسية المعاصرة ليست من الحقيقة في شيء؛ لأن مفتعلي هذه الحوادث ومدبريها أخفوْا حقائق المأساة وأسرارها لدرجة أننا عشنا حوادثها في الثكنة التي بدأت فيها من أولها حتى آخرها فلم نتمكن من معرفة أسبابها الحقيقية أو حتى الإحساس بها..

مجزرة ٣١ من آذار التي يحاول بعضهم الإيهام بأنها محاولة لإحياء الاستبداد والإحاطة بالعهد النيابي وبالحرية، هي في الحقيقة مؤامرة دبرها الأعداء لهدم الخلافة العثمانية وتمزيقها..

مجزرة ٣١ من آذار التي طواها التاريخ أعجزت المؤرخين

عن إصدار حكم قاطع بشأنها. والسبب في هذا هو تعمد مدبري المؤامرة قتل شهود الحوادث أو إعدامهم.

هذه الحادثة التي دبرها أعداؤنا بشكل دقيق ومنظم مرّت بعدة أطوار سياسية حتى دخلت ثكنة طاش قشلة.

وإنه لمن دواعي الأسى والأسف أن يذهب عدد كبير من الأتراك ضحية هذا الغدر والخسة والدناءة.

لقد وضعت بذرة ٣١ من آذار في القرن الخامس عشر حتى انتشت، إنها مأساة دموية مرت بسلسلة من المراحل عبر التاريخ، حتى تعاظمت ونجح أعداؤنا في الاقتحام بها الثكنة العسكرية حتى ينتقموا منا، إنها لا تشبه تمرد خليل الأرناؤوطي عام ١٧٣٠ ولا تمرد مصطفى قباقجي عام ١٨٠٧، فهذه حوادث جرت لأسباب محلية.

مجزرة ٣١ من آذار أعداؤنا بالعرق والمال، استهدفوا بها تمزيق الإمبراطورية العثمانية وهدم الخلافة، وأخرجوها على المسرح بشكل تمرد عسكري، ولقد خُدع القائمون على الجهاز الإداري للدولة بهؤلاء الأشرار، وأخيرًا فهموا خطأهم ولكن بعد فوات الأوان، مع كل هذا فقد حُجبَت

الحقيقة بستار من الضباب وغُيِّبت في مجاهل التاريخ.

إن النوافذ التي فتحوها باسم الحرية قد أغرقت الناس في الظلام، وأول هدية من الذين ادعوا أنهم سيُخرجون الناس من الحكم المطلق إلى الحكم النيابي ومن الاستبداد إلى الحرية، كانت نصب أعواد المشانق في ساحات إستانبول. وكانت الوسيلة إلى ذلك فاجعة ٣١ من آذار التي تقدم فيها أدعياء الحرية بأكبر خدمة للأعداء.

أنا أحد الشاهدَيْن اللذَيْن بقيا على قيد الحياة بعد أن عاشا الحادثة في مكان وقوعها بثكنة طاش قشلة، وذاقا من الآلام ما لم يذقه أو يتحمله أي إنسان على وجه الأرض.

وكما هي الحال في سائر منعطفات القدر فإن الجيش البائس هو الذي تورط في هذه الحادثة.

يدعي البعض أن وقعة ٣١ من آذار هي من تدبير السلطان عبد الحميد وبعضهم يدعي أنها من صنع الاتحاديين، وغيرهم يقول: إنها مؤامرة حاكها مشايخ جمعية الاتحاد المحمدي بقيادة (درويش وحدت). فمن المفيد أن نستعرض تاريخ نواة هذه الحادثة باختصار.

في القرن الخامس عشر، أهدى تتار بلاد القرم السلطان سليمان القانوني فتاة يهودية روسية اسمها (روكزيلان) كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم. ولشدة جمالها افتتن بها القانوني فاتخذها زوجة له وسماها (خُرَّم سلطان)، وبفضل نفوذها في القصر زوّجت ابنتها مهرماه من اللقيط الكرواتي رستم باشا، وتمكنت من قتل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إبراهيم باشا، ونصْب صهرها رستم باشا مكانه. ولم تكتف بهذا بل دبرت مؤامرة استطاعت فيها خنق ولي العهد مصطفى بن سليمان القانوني من زوجته الأولى على أيدي الجلادين بحجة أنه يفكر في مؤامرة للإطاحة بوالده، ونصَّبت ابنها سليمًا وليًّا للعهد.

هذه الحوادث مذكورة في كتب التاريخ، وكانت في عهد تعرَّض فيه اليهود في روسيا للظلم، وفي إسبانيا للقتل والحرق والتشريد، وعندما حصلت (خرم سلطان) على إذن من سليمان القانوني في السماح لليهود باللجوء إلى البلاد بدأ اليهود بالهجرة أفواجًا، واستمرت هذه الهجرة حتى الإعلان الدستوري.

منذ آلاف السنين، تعرضت فلسطين لغزوات أمم مختلفة،

حيث طرد قوم النبي موسى منها، ثم إنهم لم يتمكنوا بعد ذلك من الاستقرار على أرض لقذرهم وشؤمهم؛ لذا فإنهم انتشروا في أنحاء المعمورة.

هؤلاء القوم الذين استغلوا كل شيء حتى أسماء أنبيائهم، جربوا كل الخدع والمؤامرات السياسية لاسترجاع فلسطين التي فقدوها على مدى التاريخ.

اليهود الذين انتشروا في كافة الأقطار العثمانية وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات المعطاة لهم، وتحينوا الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلاد، وأُعفوا من الخدمة العسكرية، وأسسوا مدارس وروابط خاصة بهم، وحصلوا على جميع الامتيازات، كل هذا وأكبر عدو لهم هم الأتراك؛ لأن فلسطين يحكمها الأتراك. هؤلاء اليهود عاشوا أرغد عيش في عهد السلطان عبد الحميد.

في البلاد العربية، في بيروت، في سلانيك، وفي بلاد الروم، في بلاد الأناضول، في الجزر، كانوا هم السماسرة والأغنياء، عاشوا حياة مترفة ومريحة في الممالك العثمانية وأكبر أعدائهم هم الأتراك وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد.

في أواخر القرن التاسع عشر ونتيجة لسوء الإدارة الذي خلّفته عصور الانحطاط، ضعفت الإمبراطورية العثمانية وأصبحت تحت وطأة سلسلة من الامتيازات الأجنبية.

فكرت الدول الاستعمارية في الاستفادة من هذا الوضع، فاجتمعت في ريفالد على ساحل بحر البلطيق. وتسربت أنباء لقاء ريفالد الذي استهدف تمزيق الإمبراطورية العثمانية.

كان اجتماعًا سياسيًّا ضَمّ ملك الإمبراطورية البريطانية إدوارد السابع، وابن خالته ملك روسيا نيقولا الثاني، وإمبراطور ألمانيا كايزر ويلهلم، وإمبراطور النمسا والمجر فرانسوا جوزيف، وملك إيطاليا فيكتور عمانوئيل.

ولم يمض وقت طويل حتى عقد مؤتمر الصهيونية العالمية عام ١٨٩٧ في مدينة (بازل) بسويسرا، واشترك فيه (٢٠٤) من الأعضاء، وبعد مناقشات طويلة توصلوا إلى قرار حول تأمين وطن ليهود العالم.

تقرر في البداية أن يكون هذا الوطن في الأرجنتين أو أوغندة، إلا أن أحد كبار أعضاء المؤتمر وهو (تيودور هرتزل) أصر على أن يكون هذا الوطن في فلسطين،

وعرض فكرته على التصويت فكانت الأكثرية لصالحه، ثم اتخذ القرار التالي:

« ضرورة نجاح هذه القضية ولو اقتضت صرف الملايين، وقد أُعطيت الصلاحية المطلقة لتيودور هرتزل لقاء تعهده بالوصول إلى الغاية المرجوة مع تحمل كافة المسؤوليات المترتبة عليها ».

ربح بارون هيرس أحد أغنياء اليهود ثروة طائلة من الخطوط الحديدية العثمانية عام ١٩٠٥، ثم توفي بعد أن أوصى بمئتين وخمسين مليونًا من الفرنكات لصرفها في سبيل تأمين وطن ليهود العالم، في هذه الفترة كان يهود روسيا يتعرضون للظلم فيهاجرون إلى تركيا حتى تمكن بعضهم من الوصول إلى فلسطين.

وفي عام ١٨٩٨ وصل إمبراطور ألمانيا ويلهلم الثاني إلى إستانبول بدعوة من السلطان عبد الحميد، فاستغل تيودور هرتزل هذه الفرصة واتجه إلى إستانبول، إلا أن زيارة الإمبراطور لإستانبول كانت قد انتهت، وبدأت زيارته للقدس، فلحقه هرتزل إلى هناك، وتمكن بعد توسط رئيس

الوزراء الألماني فون بولوف من مقابلة الإمبراطور وطلب مساعدته في هجرة يهود العالم إلى فلسطين.

أبلغ الإمبراطور أنه يمكنه المساعدة بشرط عدم المساس بحق حكم السلطان العثماني.

وعاد هرتزل إلى إستانبول يحدوه الأمل الكبير، وتمكن هو والحاخام اليهودي موشيه ليفي بتوسط السفارة الألمانية من الذهاب إلى قصر يلدز ومقابلة السلطان عبد الحميد، وتقدم تيودور هرتزل إلى السلطان بالرشوة قائلًا:

« مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان، لقد وكَّلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل والرجاء، عبيدكم المخلصون اليهود يُقَبِّلون التراب الذي تدوسونه ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة.

ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتهم خمسة ملايين ليرة ذهبية ».

وكان السلطان قد أُحيط علمًا مسبقًا بقرار المؤتمر العالمي للصهيونية في سويسرا، وعلى علم بوصول المهاجرين اليهود من روسيا؛ لذا كان يفهم ما يقصده الوفد

اليهودي من هديته، وبعد أن استمع إلى هذا العرض بكل هدوء أمر مرافقه أن يطردهم من القصر وأصدر على الفور أمرًا يمنع هجرة اليهود إلى فلسطين.

ناصبوا السلطان العداء، لأنهم لم يحصلوا على الامتياز الذي طلبوه منه فأجمعوا أمرهم وعقدوا مؤتمرًا آخر واتخذوا قرارًا بالوصول إلى الهدف عن طريق خلع السلطان عبد الحميد بالوسائل السياسية، وكانت أول محاولة لهم مع المنظمات السرية الأرمنية، وكان إدوارد السابع على علاقات قوية مع اليهود، وبعد أن أصبح ملكًا على التاج البريطاني انتسب إلى المحفل الماسوني بتوجيه من غوستاف الخامس ملك السويد، وعهد إدوارد السابع هذا كان عهدًا ذهبيًّا ليهود العالم، ساعدهم على تسربهم إلى فلسطين وبذلك وجدوا فرصة للاستيلاء عليها.

قدَّم كارل إدوارد مبلغ ١٣ ألف ليرة ذهبية للمنظمات السرية الأرمنية لإلقاء قنبلة على قصر يلدز وقتل السلطان عبد الحميد، وفتح اعتمادات في البنوك الأجنبية لخدمة الأهداف الصهيونية؛ لذا فإن أول عمل قامت به المنظمات الأرمنية هو الهجوم على الباب العالي (دار الحكومة)،

وهجم فريق آخر على البنك العثماني، وألقوا القنابل ليثيروا الرعاع. وعلى الفور أمر الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) سعيد باشا بمحاصرة البنك، وقبض رجال الدرك على الأرمن المهاجمين في الباب العالي، وتمكن عمال الموانئ من إعمال القتل فيهم بالأحجار والعصي، واستعمل الأرمن الذين احتموا بكنيسة، مختلف أنواع المسدسات والقنابل وبعد اشتباكات مع الجيش استسلموا، وقد تدخل السفير الروسي في الأمر وادعى بأن المقبوض عليهم هم من الجنسية الروسية وطلب السماح لهم بمغادرة البلاد على متن باخرة روسية، وافقت السلطات العثمانية على هذا الطلب تحت وطأة امتيازات الأجانب، ثم إن الأرمن لم يصرفوا نظرهم عن العمل الذي بدؤوه، فكان هدفهم هو القضاء على عبد الحميد.

موَّل اليهود هؤلاء الأرمن ودفعوهم إلى الأمام. فكانت المؤامرة هذه المرة أشد إحكامًا وأقوى تدبيرًا، الخطة أعدها اليهود في سويسرا، وكُلِّف بالأمر إدوارد جورس وهو يهودي مَجَريٌّ، فرنسي الجنسية تدرب في روسيا على أعمال الاغتيال، بدأ أدوار نشاطه بالتعاون مع منظمة الطاشناق

الأرمنية؛ ولكي تنجح المؤامرة لا بد من قتل السلطان. وبموجب الخطة التي أعدوها، استطاعوا إدخال عربة إلى البلاد صنعت خصيصًا، ووصلت إلى إستانبول قطعة بعد قطعة. ثم ركب على بعضها. وقد تبين من التحقيقات التي أُجريت فيما بعد أن القطع دخلت إلى البلاد دون تفتيش من رجال الجمارك الذين قبضوا ثمنًا لها. صممت قنبلة موقوتة (قنبلة الجحيم) ووضعت تحت كرسي القيادة في القسم الخشبي منه لتنفجر في الوقت الذي يأتي فيه السلطان عبد الحميد لصلاة الجمعة، وكان مقررًا أن تُتْرَكَ العربة قرب الطريق الذي يمر منه السلطان، تركوها، وعُرف عن السلطان تقيده بالنظام والمواعيد في حياته الرسمية والخاصة، حيث تجري مراسيم الجمعة في الوقت المحدد على الضبط. وقبل أداء التحية يجري عرض عسكري. والمسافة بين باب القصر والمسجد لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار. وقبالة باب المسجد الخارجي مبنى يقف على شرفاته السفراء وزوجاتهم وكبار الوزراء المدعوين لحضور المراسيم.

تعطى إيعازات للجنود المصفوفين على جانبي الطريق لتركيب الحربة وأداء التحية، ثم يعلن البوق من عند باب

القصر مجيء السلطان. وعندما تظهر عربة السلطان التي تُجر بأربعة خيول تَعزف الموسيقى السلام الحميدي، ثم تعقبها موسيقى التحية، وبعدها يدوي صوت (بادشاهم جوق باشا) « عاش مولانا السلطان ».

هذا الاحتفال يحضره رجال الدولة، ولا يسمح بدخول المسجد لصلاة الجمعة مع السلطان إلا للذين حصلوا على إذن مسبق، والبوليس السري والشرطة المدنية ينتشرون في كل مكان.

وكما هو معتاد وصل السلطان بنفس المراسم إلى المسجد في هذا اليوم الجمعة ٢١ من تموز ١٩٠٥.

نزل من العربة ودخل المسجد وسط تكبير الحاضرين كان يصلي في السدة المحاطة بالشبك، ولا يوجد على جانبي السدة إلا المرافقون والحراس، وبعد الانتهاء من الصلاة والدعاء نزل السلطان من الدرج ووصل إلى المكان الذي يمتطي فيه عربته، وأراد أن يجامل شيخ الإسلام جمال الدين أفندي، فأمضى بضع دقائق مع الشيخ، في حين كانت ساحة المسجد مملوءة بقادة الجيش ونوابهم والشرطة

السرية، في هذا الوقت بالضبط انفجرت القنبلة محدثة دويًّا هائلًا، وطارت قطع من الخيول والعربة والأيدي والأرجل البشرية في الهواء وخيم على المنطقة دخان كثيف، وتحطم زجاج نوافذ المسجد، وقد أذهل الصوت رجال الجيش والشرطة فهرب من بقي منهم على قيد الحياة، وبعد مدة عاد بعضهم فهنأ السلطان على سلامته فأمرهم بتهيئة عربته، ومحاصرة المنطقة واعتقال المتسببين، ثم ركب عربته بمفرده ودخل بها إلى القصر، قتل في هذه الحادثة عدد كبير من الجنود ولم يُتعرف على أشكالهم بسبب تمزقها، وقد اعتقل كثيرون إلا أن أكثر المتآمرين الكبار كانوا خارج البلاد، شكلت لجنة تحقيق برئاسة نجيب ملحم حيث تولت هذه القضية وتوصلت بعد وقت قصير إلى الإحاطة بأبعاد المؤامرة، وعرفت الفاعلين وألقت القبض على كريستوفر ميكائيليان وابنته روبينا وقسطنطين قيوليان وكان قيوليان هذا يهوديًّا روسيًّا، استطاع وهو في السجن أن يقطع شرايينه بطرف الأبريق المعدني في المرحاض وينتحر.

قامت المخابرات التركية الخاصة بإجراء تحريات واسعة استطاعت الحصول على نشرة لها أهمية بالغة، كانت هذه

النشرة تحوي ٢٢ مادة من دستور منظمة الصهيونية العالمية. وكانت النتيجة الحقيقة التالية:

منذ سنة ١٨٩٢ والعالم في صراع مع اليهود الذين تبنوا هذا الدستور وحوادث ٣١ من آذار دبرها اليهود، هؤلاء اليهود وإن قضي عليهم فإن صراعًا سيأخذ وضعًا مستمرًّا بين بني إسرائيل والعالم العربي. لذا فإن بذور حرب عالمية ثالثة بين روسيا التي تحاول التمسك بالعالم العربي والمحور الإنكلو أمريكي الذي يؤيد إسرائيل، مدفونة في الشرق الأوسط.

ليس هناك أدنى شك في أن عبد الحميد أحس بهذه النوايا وعرف بأن دولة إسرائيل ستقوم، إلا أنه أراد ألا يكون هو الوسيلة إلى ذلك، كان يعلم تعاون اليهود مع الماسونية، ويخشى كثيرًا من أن تلجأ عناصر غير تركية إلى تمزيق الإمبراطورية؛ لذا فإنه قرَّب الأرناؤوط والأكراد والشركس إلى القصر، وأسند إليهم المناصب حتى إن بعض العسكريين من هؤلاء ترقوا في مناصبهم إلى أعلى درجات (مشير).

وكان يشتبه في أمر الأرمن واليهود خاصة، ويعتقد بأنهم سيقومون عاجلًا أو آجلًا بأعمال هدامة، ومهما قيل عن استبداد عبد الحميد، فإنه كان عالمًا بما يجري حوله،

ناظرًا إلى المستقبل متحاشيًا الحروب مقتنعًا أن كل شيء يمكن حله بالوسائل السلمية. شاغلًا فكره بما يخطط اليهود الماكرون من المؤامرات في الدولة العثمانية.

قال مرة: لا أخشى من ثورة الروم والأرمن ولا الأرناؤوط، فأنا قادر على إخمادها، إلا اليهود فإنهم أغنياء وأذكياء ومن الصعب مكافحتهم.

الحوادث التي توالت أظهرت صواب فكرة عبد الحميد. بواقعة ٣١ من آذار التي أحدثها يهود سلانيك الدونمة والماسون ثمَّ زوال حكمه، وشهد بأم عينيه عصاة البلقان وهم ينهبون خزينة الدولة، وعاش المآسي الناجمة عن سياسة جمعية الاتحاد والترقي.

لن يتمكن التاريخ من أن يحكم على عبد الحميد بالعجز والفشل.

ولو أن الاتحاديين الذين تربوا في المدارس التي أنشأها عبد الحميد اشتركوا مع السلطان في إدارة الدولة لتوحدت ديناميكيتهم مع تجارب عبد الحميد السياسية ولتغير مجرى التاريخ.

ولو كان ذلك لما ذهب آلاف من الجنود الأتراك ضحية ٣١ من آذار في ثكنة طاش قشلة.

كان للصد الذي لقيه تيودور هرتزل مندوب الصهاينة من عبد الحميد وقع أليم في نفسه، ظن هرتزل أن الضمانات التي أعطاها إياه إمبراطور ألمانيا ويلهلم كافية لنجاح مهمته، وأن مبلغ خمسة الملايين ليرة ذهبية تجعل عبد الحميد يستجيب لطلبه، ولمّا ظهر عكس ما توقع انتقل إلى البلقان وعقد مع اليهود سلسلة من المؤتمرات حيث توصلوا إلى القرار التالي:

تفويض عمانوئيل قراصو للقيام بالمهمة.

وقراصو هذا عدو لدود للأتراك يتمتع بالجنسيتين الإيطالية والعثمانية، وبعد حوادث ٣١ من مارس كان أحد الأربعة الذين دخلوا على السلطان في قصره وأبلغوه قرار الخلع، وبعد الإعلان الدستوري أصبح نائبًا عن ولاية سلانيك.

بدأ النشاط الجديد بتحريك الأقليات غير المسلمة. ليقوم هؤلاء بحركة استفزازية فتحدث مجازر تتدخل إثرها الدول الكبرى لوقفها.

أول عمل من هذا القبيل كان مع الماليسور إذ ثار هؤلاء بالتعاون مع العصاة الأرناؤوط وأنهكوا الدولة العثمانية التي اضطرت لتوجيه جيش جبار لمقاتلتهم والقضاء عليهم.

من هؤلاء فائق ودرويش اللذان عملا مع جريدة ألبانيا ليل نهار لإزالة عبد الحميد. وكان ممولهم عمانوئيل قراصو، ومن المعروف أن الثوار الأرناؤوط كلهم ماسونيون.

ولعل أول محفل ماسوني في الإمبراطورية العثمانية افتتحه الإيطاليون هو محفل (برات) مركز ألبانيا.

ومن بين الثوار الأرناؤوط رجل غريب الأطوار اسمه (إسماعيل كمال)، لم يترك طريقًا إلا وسلكه في سبيل الحصول على المال، أخذ من الصهاينة والإيطاليين والإنكليز وخديوي مصر، حتى إنه كان يرسل تقارير عن نشاط السياسيين في الخارج إلى السلطان عبد الحميد ويقبض ثمنها من السلطان نفسه.

في تلك الأيام كانت البلقان تلتهب وعصابات الأناؤوط والبلغار والصرب والقرة داغ تهجم على القرى وتقتل موظفي الحكومة والأهالي. مجازر حدثت في بلاد الروم.

وقطاعات الجيش العثماني منهكة في إخماد هذه الحركات. فلم يبق هناك شيء اسمه الاستقرار.

كان عبد الحميد في صراع مرّ وحكيم مع هؤلاء، لكن هناك اتفاقًا تاريخه عام ١٥٥٣ بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول حَوْلَ المواطنين الأكثر رعاية، تَحَوّلَ فيما بعد إلى جرح لا يندمل في صدر الدولة العثمانية على مدى أربعة قرون وأصبح فيما يسمى بامتيازات الأجانب.

وبسبب ذلك لا تؤخذ من الأجانب ضرائب ومكوس، دورهم محمية ومصانة لا يدخلها رجال الشرطة ولا تطبق عليهم الإجراءات الاقتصادية، كانت هناك امتيازات حقوقية، واقتصادية، ومالية. كلها مُخِلَّة بسيادة الدولة واستقلالها. فالدولة التي تسودها الامتيازات ليست دولة مستقلة.

الدولة لم تستطع جبي ضرائب التمتع المترتبة على أصحاب الامتيازات التي كانت كسبًا لأعداء عبد الحميد في إظهار حكمه ضعيفًا، ففي كل مباحثة جرت بين دولة أجنبية والدولة العثمانية كانت الثانية هي الخاسرة. والسلاح الوحيد الذي استخدمه عبد الحميد مع هؤلاء هو الدهاء، إذ لم يلجأ إلى قتل أي معارض لسياسته في الداخل أو الخارج.

لم يحد عبد الحميد طيلة عهده عن طريق العدل قيد أنملة، وما يدّعيه البعض من أنه أحرق طلاب الطب والبحرية في المراجل أو أنه ربط أرجلهم بسلاسل حديدية وألقاهم في البحر، أكاذيب اختلقها اليهود.

وطوال حكمه الذي استمر ثلاثة وثلاثين عامًا. لم ينفذ حكمًا بالإعدام سوى حادثة واحدة فقط، مع هذا فإنه يبدو مستبدًّا في نظر معارضيه.

كان عبد الحميد يتعقب خصومه ليتعرف على أهدافهم ونقاط ضعفهم بحيث يتمكن من ملاطفتهم وتلبية رغباتهم.

فمثلًا انتهى من ثلاثة خصوم بجرة قلم، هؤلاء هم: حلمي طونالي وعبد اللّٰه جودت وإسحق سكوتي، عيَّن حلمي كاتبًا ثالثًا في سفارة مدريد فأنساه مطالبته بالحكم النيابي، وعين عبد اللّٰه جودت طبيبًا في سفارة فيينا، فلم يبق فيه أثر الثورية. وأعطى لإسحق سكوتي درجة دكتوراه في الدبلوماسية بلندن، إلا أن تيودور هرتزل المطرود، حرَّك البلقان ثم ذهب إلى باريس والتقي هناك بحزب تركيا الفتاة وعرض عليهم التعاون معه، ودفع لهم أموالًا طائلة، وهذا

الحزب كان وصوليًّا يقبض أموالًا تحت أسماء مستعارة حتى من عبد الحميد نفسه.

كان في هذا الحزب أناس صادقون مخلصون أمثال محمود باشا وجامع بك، ظنوا أن القضاء على عبد الحميد يخص الأتراك وحدهم، وما دروْا أنهم سيصبحون آلة في خدمة سياسة الانتقام التي يعتنقها الماسونيون اليهود.

كان على رأس مخططي وقعة ٣١ من مارس الذين اتخذوا من سلانيك مركزًا لبث سمومهم، عمانوئيل قراصو، وزميله الدونمة جاويد الذي أصبح وزيرًا للمالية في حكومة الاتحاد والترقي، ثم أعدم بتهمة محاولة اغتيال مصطفى كمال، يبدأ العمل بالمال الذي أعطاه عمانوئيل قراصو للاتحاديين. هذا المال الذي يبلغ أربعمائة ألف ليرة ذهبية قبضه قراصو من البنك الإيطالي وأعطاه لرجل غني اسمه نجيب دراغا الذي أعطاه بدوره إلى أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وهو أيوب صبري الذي تولى صرفه طبقًا للأوامر والإجراءات المتبعة، وبكل أسف كان مصروفًا لأحداث فتنة ٣١ من آذار، ذكر عمانوئيل قراصو من قبيل الفخر مرارًا أن الاتحاديين

نفذوا بأربعمائة ألف ليرة ذهبية ما لم ينفذه عبد الحميد بخمسة ملايين.

وفي غمرة النشاط المعادي لعبد الحميد في سلانيك وباريس كانت الصحافة العالمية منهمكة في نشر الدعايات التي تحط من قيمة السلطان العثماني.

الأدوار التي لعبها المحفل الماسوني (ريزورتا) في سلانيك، مهمة جدًّا، إذ كان على رأسها قراصو، وكذا محفل باريس وجنيف ومحفل فلورنسا، هذه المحافل استطاعت عن طريق حزب تركيا الفتاة الاتصال بالمؤسسات المهمة في الدولة العثمانية، وجعلت الفئات المنحرفة من البكداشيين والملاميين والكاشناستيين وكذا بعض أصحاب الطرق والضباط والوزراء والسفراء والشعراء والكتاب والمحامين تنتسب إلى محافلها وتعتنق الماسونية.

من هؤلاء طاهر البورسلي أحد مؤسسي جمعية الوطن والحرية (ملامي).

وشيخ الإسلام موسى كاظم، وشيخ الإسلام خيري أفندي والفيلسوف رضا توفيق وكاظم نامي (بكداشيون ماسونيون).

وطلعت باشا، وسليمان عسكري ووهيب باشا والملازم عاطف الذي قتل قائد الجيش الثالث شمس باشا، وبطل الحرية نيازي. والبكباشي أيوب صبري (بكداشيون ماسونيون) والثوار الأرناؤوط كلهم ماسونيون.

أما عصابات البلغار والصرب والروم فكانوا على علاقات وارتباطات مستمرة بسلانيك.

أعضاء حزب تركيا الفتاة المخلصون لم يكونوا على علم بنوايا الصهيونيين شركائهم في العمل؛ لذا لم يفهموا إلى أي جهة سترجح كفة الميزان، فاستمروا في نشاطهم وزادوا منه. وانضم إليهم أحمد رضا بك ورفاقه وسارت القافلة.

في هذه الفترة كان حزب تركيا الفتاة بإستانبول قويًّا في اتصالاته بطلاب المدارس الحربية والبحرية والطب والصيدلة، ويوزع عليهم الصحف والمجلات المرسلة من باريس.

أما البكباشي محمود بك مدرس اللغة الفرنسية في الكلية الحربية ومعاونه ملازم أول محيي الدين بورسلي وفريد بك كانوا يتولون التوزيع.. وقد نُفي البكباشي محمود إلى جزيرة

رودوس بعد القبض عليه، وهرب فريد بك إلى مصر، ومن تنظيم مدرسة البحرية طلاب أمثال سامي وحيدر، وعثمان الطرابزوني والملازم أول جواد كريتلي وصفوت بك.

كانت في إستانبول مراكز للبريد خاصة بالأجانب فهناك بريد الفرنسيين وبريد النمساويين، افتتحوها بموجب الامتيازات الممنوحة لهم. هذه المراكز أوصلت الصحف التي كانت تأتي من حزب تركيا الفتاة من باريس.

وكذلك عبد الحليم كريتلي من المدرسة الحربية وأدهم روحي من المدرسة الطبية والملازم الأول فريد من كلية الأركان وزميله يوسف أقجورا كانوا أعضاء في جمعية تركيا الفتاة وقد أُوقفوا جميعًا.

وبالرغم من ملاحقة الشرطة السرية لهم فإن نشاطهم كان يتوسع يومًا بعد يوم، انتسب إلى التنظيم مشايخ التكايا البكداشية وأعضاؤها، وموظفون في القصر. منهم ثريا وكاظم وخيري وجعفر العربي وعربي بك وأناس لا يتوقع منهم أن ينتسبوا إلى هذا التنظيم.

كان هدفهم إسقاط عبد الحميد من الحكم وتولية سلطان

ذي أفكـار نيرة متحررة. هـذه الفكرة انتشرت خاصـة فـي أوساط الطلبة والضباط.

تعوَّد السلطان عبد الحميد أن يخرج في الخامس عشر من شهر رمضان من كل سنة إلى سراي طوبقاي ويزور الآثار النبوية الموجودة في جناح البردة الشريفة. كان يمر في طريقه من جسر غلطة عند الذهاب ومن جسر أونقاباني عند الرجوع.

ففكروا في تفجير أصابع ديناميت عند قاعدة أحد الجسرين لحظة مرور عبد الحميد، ولكنهم صرفوا النظر عنها خوفًا من وقوع ضحايا كثيرين، عرض رضا بك - وهو أحد قادة المدفعية - أن يقصف قصر يلدز فرُفض عرضه لنفس السبب. وأخيرًا تقرر توزيع منشور يحتوي البنود التي عرضها مدحت باشا على عبد الحميد من مشروع الدستور عندما كان رئيسًا للوزراء، وطالبوا الشعب في هذا المنشور بالقيام بثورة لفرض هذا الدستور. وفعلًا وزع المنشور حتى وصل إلى أبواب القصر.

فقبض على الضابط البحري حيدر بك وهو يوزع المناشير، ومن جهة أخرى قبض على بعض خدم مدارس

البحرية فأقروا بأسماء أعضاء التنظيم، فسيق أكثرهم إلى ثكنة طاش قشلة وسجنوا هناك، وبعد محاكمة لهم برئاسة رشيد باشا صدر الحكم عليهم بالنفي الجماعي إلى طرابلس الغرب.



السلطان عبد الحميد الثاني

ولد السلطان عبد الحميد الثاني يوم الأربعاء ٢١ من أيلول سنة ١٨٤٢ ميلادية، وهو ابن السلطان عبد الحميد من زوجته الثانية. تُوِّجَ الخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٦ ميلادية، وكان عمره آنذاك أربعًا وثلاثين سنة.

عندما تولى الخلافة كانت الديون المترتبة على الدولة تبلغ ٢٥٢,٨٠١,٨٨٥ ليرة عثمانية، كان عليه أن يستعد لمجابهة الموقف وإيفاء الديون حتى يرد من اعتبار الدولة تجاه الدول الخارجية، فاستقدم خبراء ماليين من أوربا حيث أعدوا له تقريرًا بإمكانية وفاء هذه الديون.

وعندما تقرر تشكيل إدارة الديون العامة كان إجمالي هذه الديون منخفضًا حتى أصبح ١٠٦,٤٣٧,٢٣٤ ليرة ذهبية.

وقد أخذت بعض القروض بعد ذلك إلا أن أكثرها سُدِّد من الواردات، وبعد اعتلائه العرش وقعت الحرب بين الروس وبين الإمبراطورية العثمانية في (١٢٩٣ رومي).

كانت هذه الحروب خسارة فادحة للدولة إذ راح ضحيتها ناس كثيرون وفقدت قطعة كبيرة من الأرض. حاول عبد الحميد تفادي وقوع الحرب وأراد أن يجرب الطرق السياسية إلا أن مجلس الوزراء اتخذ قرارًا معكوسًا أدى إلى نشوب الحرب، ونتيجة للهزيمة المنكرة التي مُنيت بها الدولة العثمانية تقدمت القوات الروسية حتى وصلت إلى أسوار إستانبول، حينئذ اضطرت الدولة العثمانية إلى قبول شروط قاسية ودفع تعويضات وإعطاء امتيازات للأجانب وذلك في معاهدة إيستفانوس.

وفي الحرب اليونانية التي وقعت في ١٨٩٧ اضطر عبد الحميد إلى دفع أكثر مصاريفها من خزينته الخاصة، وكان ينفق من ماله الكثير على الفقراء والمحتاجين.

عبد الحميد يعتبر أعظم خليفة في عصر انحطاط الدولة. وقد يكون مرتكبًا أخطاء إدارية إلا أن الذي لا شك فيه أنه قام بأعمال كبيرة وجليلة لخير الدولة، فالأعمال التي قام بها تملأ كتبًا ومجلدات وبخاصة في مجال التعليم، عبد الحميد هو الذي رفع مستوى الثقافة، فالمؤسسات التي أُنشئت في عهده قائمة حتى الآن ليس لأحدٍ أن ينكرها.

وهـذا بعـض مـا أسس: دار العلوم السياسية، الجامعة بفروعها: العلوم والحقـوق والآداب، أكـاديمية الفنون الجميلة، كلية الهندسة العالية، مـدرسة المالية، مـدرسـة التجارة، مـدرسة الزراعة العليا، مدرسة التجارة البحرية، مدرسة الإخراج والمـعادن، مـدرسـة اللغات، مـدرسـة المعوقين، دار المعلمات، مدرسة الفنون النسوية.

ويعتبر عبد الحميد مؤسس التعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي، فأنشأ المدارس الإعدادية والثانوية في كافة الولايات وأكثر المناطق، وافتتح في إستانبول فقط ست مدارس ثانوية، وكذلك افتتح المدارس الابتدائية في جميع القرى، وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزاميًّا في المرحلة الإعداية، كذلك أنشأ دورًا للمعلمين في عدد كبير من الولايات، ومدارس للحقوق في بعضها، وها هي بعض المؤسسات الثقافية التي افتتحها: متحف الآثار القديمة، المتحف العسكري، مكتبة بايزيد، مكتبة يلدز، مدرسة الطب، ثانوية حيدر باشا.

وأسس أيضًا مستشفى الأطفال، ودار العجزة من ماله الخاص، وكذلك مـركز البريـد العام، ومبـنى دار الفـنون

وقساطل المياه التي أنقذت إستانبول من العطش (مياه الحميدية)، ودار النفوس العام، والغرف التجارية والزراعية والصناعية.

وفي عهده جرى توسيع معمل الطرابيش، وافتتح معمل الخزف، وبعد هذا وذاك جرى في عهده تمديد الخطوط الحديدية من دمشق إلى المدينة بطول ١٣٢٧كم المسمَّى بالخط الحديدي الحجازي خدمة للإسلام والمسلمين.

وإصلاحات السلطان عبد الحميد العسكرية مهمة جدًّا، فقد استقدم عددًا من الجنرالات الألمان المختصين، منهم: فون دركولج وفون هوفذ وكامب هوفذ، حيث دربوا الجيش العثماني حسب متطلبات العصر، وأرسل بعثات عسكرية للتدرب في الجيش الألماني، وافتتح الإعداديات العسكرية وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة.

كان عبد الحميد متأثرًا تأثرًا نفسيًّا من حوادث جرت لأسلافه فوقع في بعض الأخطاء، وإذا نظرنا نظرة موضوعية إلى المبالغات التي قيلت عنه، فإن مئات آلاف التقارير التي تأتيه عن كل شيء بدءًا من الشخصيات الكبيرة إلى أصغر

فرد في البلاد. كافية لأن تقلب أحاسيس الإنسان رأسًا على عقب.

إننا إذا استعرضنا قادة العالم وازدياد حساسيتهم على مَرّ الزمن، وأنهم يحذرون كل شيء لما اكتفينا بإعذار عبد الحميد، بل أوجب علينا الإنصاف أن نكبر فيه جرأته وقوة أعصابه. فمع أوهامه هذه، قدم للبلاد خدمات جُلّى، وكان يملك من الذكاء والذاكرة وقوة التأثير بشكل يحير العدو والصديق.

وقد كان أيضًا متدينًا من غير تعصب، عصاميًّا بكل ما في الكلمة من معنًى.

* * *
* *
*

عبد الحميد والعرب

كان للدولة العثمانية ثلاثة جيوش في البلاد العربية قياداتها في دمشق الشام وبغداد وصنعاء اليمن، لم تسترح هذه الجيوش قط، حيث تستمر الثورات والتحرشات، وتتعرض المراكز للهجوم فيضطر الجيش للبقاء على استعداد دائم، هناك في صحاري فلسطين واليمن والعراق مشيخات وإمارات شبه مستقلة والقبائل تتحين الفرص للسلب والنهب فتسمى هذه العمليات بالغزوات.

عرف السلطان عبد الحميد كيف يعامل هؤلاء. فأرسل ممثلًا شخصيًّا له هو رشيد باشا، حيث يُوصِل إليهم كل سنة هدايا السلطان من الذهب، وافتتح مدرسة سمّاها مدرسة العشائر في إستانبول يدرس فيها أولاد الأعيان العرب من سورية والعراق واليمن وغيرها، واستطاع بعض العرب أن يرقى إلى أعلى المناصب في الدولة، وشكل كتائب الزحوف العربية واتخذها حرسًا خاصًّا للقصر. وقد حازت هذه الكتائب إعجاب الأجانب، ولما وقعت حوادث ٣١ من آذار، كانت كتائب الزحوف أول من تقيد بالأوامر السلطانية،

فلم تشترك بأي حركة تسيء إلى السلطان أو إلى الدولة.

وطوال حكم عبد الحميد لم تنقطع رواتب الأشراف من آل البيت، إذ كانت تصل إليهم بانتظام، بالإضافة إلى ذلك كانت تصل إليهم هدايا ونياشين دورية من السلطان.

وكان هناك يوم خاص يُحتَفل فيه بإستانبول بمناسبة إرسال سترة الكعبة إلى الحج، ومع السترة تُرسل أعلام وهدايا ثمينة.

* * *
* *
*

عبد الحميد والأكراد

كان في الولايات الشرقية والجنوبية من تركيا عدد كبير من الأكراد أكثر هؤلاء لا يعرف اللغة التركية، أغلبهم شيعة والقليل منهم من أهل السنة، عاشوا تحت إمرة شيوخهم في استقلال ذاتي لا يدفعون الضرائب ولا يتعايشون مع الأتراك. استطاع عبد الحميد أن يسوسهم بالطرق الدبلوماسية فدرَّس أبناءهم في مدرسة العشائر في إستانبول. وعيّن بعضهم في مناصب الدولة ومنهم من قدّم للبلاد خدمات جُلَّى.

ومن أشهر رجالات الأكراد - في عهد عبد الحميد - علي شامل باشا الذي كان من كبار المتنفذين حتى إنه بسبب خلاف وقع بين أخيه وأمين العاصمة رضوان باشا صمم على قتله، وقتله فعلًا على أيدي رجاله، الأمر الذي أدى إلى غضب عبد الحميد عليه فنزع منه رتبته ونفاه هو وعشيرته إلى طرابلس الغرب.

* * *
* *
*

عبد الحميد والأرمن

عندما تولى عبد الحميد الخلافة كانت روسيا القيصرية تتبع سياسة الصداقة مع العثمانيين في الظاهر إلا أنها سعت في الوقت نفسه بفصل السلافيين والصرب والبلغار والقرة داغ عن الدولة العثمانية، وفي عام ١٨٧٧ أسفرت عن وجهها الحقيقي، ودخلت في حرب مع العثمانيين، كانت نتيجتها فصل أكثر مناطق البلقان عن الدولة، وفي معاهدة برلين اضطرت الدولة العثمانية لقبول الأمر الواقع إلا أنه بفضل ضغط الألمان على الروس بقيت بلغاريا فترة أخرى تحت الحكم العثماني.

في تلك الفترة سادت العالم الأوربي فكرة تقول بأن حل أي مشكلة كامنٌ في اقتطاع أي جزء جديد من جسم الإمبراطورية العثمانية. وفعلًا كانت البوسنة والهرسك، وألبانيا، وطرابلس الغرب، والكردستان، وأرمينية، والوهابية، مشكلات تنتظر دورها في الحل على الطريقة الأوربية.

ولإنشاء دولة أرمنية نذر الأرمن أنفسهم أدلَّاء لروسيا

القيصرية، فقامت عصابات الطاشناق والهتشاق بنشر الرعب في الأناضول والقيام بحركات الإبادة والتمرد؛ ليكونوا السبب في تدخل الدول الأجنبية، ثم إنهم أصبحوا مطية لليهود في محاولتهم اغتيال عبد الحميد عند خروجه من صلاة الجمعة في يلدز، وحاولوا نهب البنك العثماني وتعاونوا مع الصهيونية إلى أبعد الحدود لتحقيق هدفهم المشترك وهو القضاء على الدولة العثمانية، وعندما أراد الأرمن ضرب الجيش العثماني من الخلف أثناء الحرب العالمية الأولى وأثناء التحريات التي أُجريت في أماكن عبادتهم عثر على كميات هائلة من الأسلحة الروسية.

لذا قررالاتحاديون تهجيرهم. وقد لحق الظلم ببعض الأرمن من التهجير لكن كانت عصاباتهم هي السبب في هذا التهجير.

* * *
* *
*

عبد الحميد واليهود

ذكـرنا سابقًا أن اليهود عـاشوا أهنأ أيامهم فـي عهد عبد الحميد، ومع هذا كانوا هم السبب في سقوط حكمه؛ لعدم تساهله معهم حول الهجرة إلى فلسطين.

ولو قبل عبد الحميد الرشوة التي قدمها تيودور هرتزل لَمَا سقط حكمه.

فاليهود هم قبيلة أصلهم من جزيرة كريت جاؤوا إلى أرض فلسطين، وحكمهم رمسيس الثاني فأصبحوا تبعًا له إلى أن استرجعهم الملك داود، وبعد القرن السابع ضاعوا في مجاهل التاريخ في حين بقي اسمهم في القدس بتعايش الأديان اليهودية والنصرانية والإسلام، والمكان الذي أتى إليه عيسى عليه السلام من الناصرة على ظهر حماره وجلس وأكل فيه، هو الآن قِبلة اليهود (جبل صهيون)، الذي يرقد فيه تيودور هرتزل المطرود، ويذكر التاريخ أن هذه البلاد حكمها البابليون والحيثيون وإسكندر الكبير والرومان والعرب والصليبيون والتتار والعثمانيون..

ذكر إسرائيل كوهين في كتابه « الحركة الصهيونية » ص٧٧ ما يلي: « بتاريخ ١٨ من مارس عام ١٩٠١ تقدم يهودي مَجَريٌّ اسمه أورمينوس وتبرع بمبلغ ضخم من المال إلى السلطان عبد الحميد يريد شراء فلسطين لليهود، فما كان من عبد الحميد إلا أن طرده من القصر على الفور ».

ويقول في مكان آخر من الكتاب:

« وفي ٢٣ من تموز (يوليو) عام ١٩٠٢ طلب تيودور هرتزل من عبد الحميد أن يعطي فلسطين لليهود، فأجاب عبد الحميد: إن اليهود يقيمون في كل أنحاء الممالك العثمانية، فإن لم يكن لهم مكان للإقامة فبإمكانهم أن يسكنوا في العراق أو سورية أو حتى في بلاد الأناضول، أما فلسطين فليس هناك مجال لطلبها. ولما رأى هرتزل ذلك من عبد الحميد، عرض عليه رشوة مقدارها ٥ ملايين ليرة ذهبية فكان هذا التصرف سببًا لطرده من القصر على الفور ».

* * *
* *
*

من الاستبداد إلى الحرية

في الوقت الذي استمر فيه حزب تركيا الفتاة بالنشاط في باريس وإستانبول وبلاد الروم، تشكلت منظمة سرية بين ضباط الجيش الثالث في مناستر وسلانيك وغيرها، غايتها إسقاط حكم عبد الحميد الاستبدادي، والعودة إلى روح الإعلان الدستوري الأول والحرية، والتمسك بالدولة العثمانية، وعدم التفريق بين المواطنين من أي دين أو عِرْق أو صنف كانوا، وتقوية الخلافة وجعل الجيش سندًا للثورة.

وفي أغسطس عام ١٣١٥ رومية قام موزع البريد طلعت أفندي مع سبعة من أصدقائه بتشكيل أول خلية لجمعية الاتحاد والترقي في سلانيك.

سمع بالنبأ أحمد رضا وهو أحد كبار أعضاء حزب تركيا الفتاة بباريس فأرسل الدكتور ناظم إلى سلانيك للاتصال بالتنظيم الجديد وتأييده، اتصل هذا بطلعت، وبعد أخذٍ وردٍّ تقرر أن يكون للجمعية فرع في باريس وأطلق عليه اسم: التنظيم الخارجي لجمعية الاتحاد والترقي.

فجرى أول انتخاب في التنظيم الداخلي بتدبير من طلعت الذي كان قد رُقِّيَ إلى درجة كاتب أول في إدارة البريد.

أحس المحفل الماسوني في سلانيك بأن طلعت سيكون له مستقبل كبير في الدولة العثمانية، فاتصلوا به وسجلوه في عداد الماسونيين، ورقي طلعت إلى عدة درجات في المحفل الماسوني، وأصبح يتقاضى منه راتبًا شهريًّا مقداره عشر ليرات إنكليزية، كان الرأس المدبر للماسونية في سلانيك هو عمانوئيل قره صو اليهودي، وقد استطاع هذا أن يحتضن طلعت أكثر فأكثر.

أُخْبِرَ عبد الحميد بما يجري في أوساط الجيش الثالث وذلك عن طريق عيونه التي بثها في كل مكان، وفي هذه الأثناء قدم طلعت وقره صو إلى إستانبول لتوثيق العلاقة مع تنظيم إستانبول لحزب تركيا الفتاة، فألقي القبض عليهما، واستجوبا أمام لجنة خاصة شُكلت بقصر مليرز بصورة مستعجلة، استطاع قره صو بدهائه أن ينقذ نفسه وينقذ طلعت معه، إذ قال: نحن ماسونيون لا ننكر ذلك لكننا لسنا أعضاء في جمعية سرية، فاقتنعت اللجنة بكلامه.

كان من بين أعضاء اللجنة رجل اسمه محمد باشا (أُعْدِمَ

بعد إعلان الحرية) جاهل بكل ما في الكلمة من معنًى، سأل قره صو: ما هي الماسونية؟ فأجاب اليهودي: الماسونية هي الإنسانية الكاملة.

- يقال: إن لهم إشارة خاصة؟

- نعم سيدي.

- انظر، هل بيننا أحد ماسوني.

- حاشا يا سيدي الباشا لا يوجد بينكم أحد ماسوني.

ثم أطلق سراحهما. لكن عبد الحميد كان يعرف ما يبيتان، فأمر بملاحقتهما سرًّا.

ولدى عودتهما إلى سلانيك وجدا أن نشاط الجمعية قد ازداد ودخل فيها شخصيات مهمة في الجيش، من بينهم (البكباشي جمال بك - جمال باشا فيما بعد) وكان من أركان حرب الجيش الثالث، و (قائد الجناح فتحي بك - فتحي أوقيار)، و (قائد الجناح مصطفى كمال - أتاتورك) وكان قادمًا من دمشق الشام.

انفجر الموقف بالشرارة الأولى التي انطلقت في مناستر مقر قيادة الجيش الثالث. حدث أن اغتيل قائد الجيش

الفريق الأول شمسي باشا الأرناؤوطي على يد الملازم عاطف بك أحد فدائيي الجمعية، واستطاع الجاني بمساعدة رفاقه أن يتوارى عن الأنظار، كانت هذه الحادثة سببًا في الاضطراب الشعبي.

ومن جهة أخرى كانت ترسل قوات إلى الجبال بقيادة المشير عثمان باشا الططري، في هذه الأثناء قام قائد الجناح نيازي بك بالسيطرة على مركز البريد في رُسنة، وأرسل من هناك برقية إلى السلطان عبد الحميد يعلمه فيها أنه سيعلن الحرية والدستور ويطالبه أن يقبل ذلك دون قيد أو شرط. وإلا فالمسؤولية الكاملة تقع عليه، وينضم قائد الجناح أغور بك إلى زميله نيازي.

أرسل السلطان برقية إلى المفتش العام هناك حسين حلمي باشا يسأله فيها عن قوة الاتحاد والترقي وعن الوضع، فكان الجواب: مولاي جلالة السلطان. أود أن أعلمكم أن كل فرد هنا سواي عضو في جمعية الاتحاد والترقي.

أسندت مهمة القضاء على جمعية الاتحاد والترقي للمشير خيري باشا الذي كان موجودًا في سلانيك، ولكنه رفض هذه المهمة، عندئذ تكفل بالأمر إبراهيم باشا قائد

منطقة سرز (SEREZ) وأرسل الفريق شمسي باشا إلى مناستر لكن هذا الأخير اغتيل على يد الملازم عاطف.

هزت الحادثة السلطان عبد الحميد هزًّا عنيفًا إذ كيف تقع حادثة الاغتيال تحت سمع وبصر ثلاث كتائب من الجيش وفي ساحة مكتظة بالناس.

وفي الصباح الباكر من يوم الخميس ٩ من تموز سنة ١٣٢٤ اجتمع مجلس الوزراء ودام الاجتماع حتى الساعة الثامنة من الليل، جرت فيه مناقشات حامية اشترك فيها رضا باشا قائد الجيش ودافع عن المطالبين بالحرية، أما إسماعيل باشا فقد طالب بالتنكيل بالمتمردين والقضاء عليهم، وفي يوم الجمعة العاشر من تموز تأخرت الصحف عن النشر فبدأت التساؤلات: لـم تأخرت الصحف؟ مَنِ السبب؟ في حين كانت الحرية قد أُعلنت في مناستر وسلانيك وأصوات المدافع تلعلع في كل مكان، وبلاد الروم كانت ترقص من نشوتها. ولم تتدخل قوة عسكرية لمنع هذه التظاهرات. فالسهم خرج من قوسه. وبعد تأخر ساعات صدرت الصحف معلنة عن أن الحكم سيكون مقيدًا في كافة الأقطار والممالك العثمانية وأن إرادة سنية ستصدر بهذا الشأن.

وبعد قليل سمعت أصوات المدافع حول إستانبول وتعانق القساوسة بالمشايخ واليهود والنصارى بالمسلمين، وأُعلنت الحرية بشعاراتها الثلاثة: العدالة والمساواة والأخوة يوم الجمعة في العاشر من تموز سنة ١٣٢٤.

استقبلت جماهير إستانبول جماعة الاتحاد والترقي استقبال الأبطال المنقذين، وهتفت بسقوط الاستبداد وبحياة النيازيين والأنوريين، وقام الخطباء من كل جانب يهنئون بالحرية ويلعنون الاستبداد.

ومن جهة أخرى صدرت قرارات إعدام عاجلة على بعض كبار ضباط الشرطة السرية، من هؤلاء: فهمي باشا الذي فر إلى بني شهر فقبض عليه الأهالي وقتلوه بالعصي والحجارة، وعزت هولو باشا الدمشقي السرياني والكاتب العام للقصر الذي استطاع الهرب إلى خارج البلاد.

وفي يوم السبت الحادي عشر من تموز سنة ١٩٠٨ كانت أصوات بائعي الصحف تُدوي في شوارع إستانبول معلنةً نبأ استقالة وزارة فريد باشا، وتعيين سعيد باشا رئيسًا للوزراء وجمال الدين أفندي شيخًا للإسلام، وإعلان الحرية والدستور، فقد مضى عهد الاستبداد وبدأ عهد الحرية، ولقد

رأت أجيالنا فيما بعد أي شيء هذه الحرية، عاشت مصائب ونكبات خُنق فيها البشر كالكلاب على أعواد المشانق، وطعن الأبطال بالحراب في صدورهم، وشهدت الأرض التي أقسم جيشها على تحقيق الحرية حمامات الدم والإبادة الجماعية. كل ذلك كان في عهد الحرية.

* * *
* *
*

العفو العام

كانت الإمبراطورية العثمانية تمتد من جبال البلقان إلى القفقاس ومن الصحراء الكبرى في إفريقيا حتى المحيط الهندي، وتمتلك اثنتي عشرة جزيرة في بحر الخزر (إيجه)، وعلى إثر إعلان الحرية تقرر العفو العام ففتحت السجون في كافة الممالك العثمانية، فلم يبق فيها أحدٌ ممن حكم أو أوقف. كانت هذه أول مرة يصدر فيها العفو العام على جميع المستويات في تاريخ الإمبراطورية.

إن إعلان الاتحاد والترقي العفو العام هو أول خطأ كبير ارتكبته بحق هذه البلاد، فما أن فتحت أبواب السجن حتى انتشر آلاف المجرمين من مختلف الأجناس في أنحاء المملكة، فكانوا سببًا في خلق كثير من المتاعب.

وفي غمرة الفرحة التي عمت إستانبول كان نزلاء سجن السلطان أحمد يهتفون بحياة عبد الحميد مطالبين بإعلان العفو العام، ويحاولون تحطيم الأبواب والنوافذ.

أما مجلس الوزارء فقد اجتمع تلك الليلة أي ١٠ من تموز

وقرر العفو العام ثم قدمه إلى القصر لمصادقته وإعلانه، فلما قرأ السلطان محتوياته سأل الوزراء الذين جاؤوا إليه:

أليس في هذا الشمول خطر على الدولة؟ ولما أجابوا ليس هناك أي خطر يا مولانا. قام بالتوقيع على القرار.

هذا وقد تُلِيَ القرارُ على جميع السجناء والموقوفين إذ ينص على إخلاء سبيلهم دون قيد أو شرط.

عمّت المظاهرات أرجاء إستانبول حيث كان المتظاهرون يهتفون بحياة النيازيين (نسبة إلى نيازي) والأنوريين (نسبة إلى أنور باشا) والاتحاديين، وبسقوط الاستبداد.

وفي ١١ من تموز جاء إلى السجن المركزي وفد رسمي يرافقه شيخ مسلم وراهبان رومي وأرمني، وحاخام يهودي ذو عمامة وجبة خضراوين. ثم وُضِعَ أمام باب السجن الرئيسي وعلى منضدة واحدة أربعة كتب: مصحف، وإنجيلان، وتوراة فوقف الجميع، ثم تلا المدعي العام قرار العفو العام، وأعقب ذلك الدعاء للسلطان بالتوفيق والعزة والنصر ثم وقف السجناء في رتل طويل وبدؤوا بالخروج من سجونهم.

إنه منظر مؤلم، ومسألة تستدعي التفكير العميق، فالغالبية العظمى من السجناء ممن تردت أحوالهم، والبعض منهم تظهر عليه آثار التنعم والتسلط والبذخ.

كان المدعي العام يسأل عن اسم السجين ثم يأمره بأن يضع يده على الكتاب الذي يؤمن به ويحلف ألا يرتكب جريمة بعد الآن، ويطلق سراحه، وعندما غربت الشمس كانت السجون خالية تمامًا من نزلائها، وكان مئات القتلة واللصوص وهُتَّاك أعراض الناس قد دخلوا في خضم المظاهرات والمسيرات في إستانبول وسائر المدن الأخرى. إن مِنْ هؤلاء مَن إذا أخذ قسطًا من دفء الشمس انقلب ثعبانًا فتاكًا، إنها فرصة ذهبية لِأَن يشبع هؤلاء كل غرائزهم ومكبوتاتهم، كانت هناك حرية مطلقة، وإن شئت فقل فوضى، ليس لأي قوة إدارية أن تتدخل للحد منها.

لقد شهدت بأم عيني حادثة تقشعر منها الأبدان ما زلتُ أتخيلها، إذ كان من بين المسجونين وحشٌ في صورة بشر اسمه أحمد الجزار حُكم عليه بالإعدام بسبب قتله عددًا من الأشخاص، ثم خُفض الحكم إلى المؤبد، ولمّا أُطلق

سراحه مع بقية المحكومين نزل إلى الشارع وأخرج سكينة من جيبه وبدأ يطعن كل من يصادفه في الطريق فقتل تسعة أشخاص ثم توارى عن الأنظار، ونشرت الصحف الحادث بالتفصيل وتمكن القاتل من الفرار إلى اليونان.

إن غرضي من سرد هذه الحادثة هو بيان الحالة النفسية للناس، وكذلك نصيب هؤلاء القتلة والمجرمين في أحداث مآسي ٣١ من آذار وما تلاها من أعمال السلب والنهب. هناك كثير من الناس يحاولون الاصطياد في الماء العكر، ولقد رأينا نماذج منها في حركة الإصلاح الأولى قبل قرن من الزمان.

إن كثيرًا من المآسي عبر القرون كانت بسبب بعض السياسيين الطامعين الذين يتسترون وراء الحق في سبيل الوصول إلى مطامعهم، إنهم جراثيم حية تغلغلت في عروق هذا المجتمع.

فهؤلاء هم الذين وضعوا ٣١ من آذار (مارس) على مسرح الأحداث[١]، ولقد أُطلق العِنَان للصحافة فاستغل الأعداء هذا الوضع فصاروا يستخدمونها لتلبية أهدافهم،

---

(١) وكان المستفيد الأكبر هم اليهود وعلى رأسهم جاكوب شيف.

وعمدوا إلى تطبيق خطة مدح الاتحاد والترقي والنيْل من مكانة الخلافة العثمانية.

إن الفاصل الزمني بين إعلان الحرية وخلع السلطان عبد الحميد هو تسعة أشهر وخمسة أيام، لم تستطع أركان جمعية الاتحاد والترقي خلالها السيطرة الكاملة على الحكومة ومن كسر شوكة السلطان، إذ إن الهدف الأصلي لم يتحقق، فلا بد من إسقاط ما أسموه بالحكم الاستبدادي والوصول إلى الهدف المنشود، لذلك قَدِمَ إلى إستانبول وفدٌ اتحادي من سلانيك يضم طلعت وأنور وجاويد ورحمي وعقدوا اجتماعًا دعوا إليه رؤساء الدوائر والولاة والمتصرفين والقائمقامين، وطلبوا منهم تنسيق المواقف مع مراكز الجمعية والعمل في نطاق الأسس والمراحل المقررة من قِبَلهم فاستغل البعض منهم اسم جمعية الاتحاد فصاروا يفرقون بين الاتحادي وغير الاتحادي في المعاملات، الأمر الذي أدى إلى فقدان الثقة الشعبية في الإدارة.

ومن جهة أخرى ظهر إلى الوجود أبطال للحرية مزيفون، كالهرر تحكي انتفاخًا صولة الأسد، فكانوا عوامل مهمة في

إخراج أحداث ٣١ من آذار إلى حيز الوجود وسنتطرق إلى بعض هذه العوامل:

فهناك طبقة المسرَّحِين من الخدمة لاتهامهم بالظلم والاستبداد، طُردوا من أعمالهم دون أية تعويضات.

أما الجيش فكان مؤلفًا من صنفين من الضباط، صنف دخل الكليات العسكرية فتخرج ثم ترقى، وصنف ترقى بفضل خدماته وتحمله المشاق في شتى أنحاء الإمبراطورية التي تبلغ مساحتها أربعة ملايين كيلو متر مربع يقطن فيها ٣٤ مليونًا من البشر، خدم في مجاهل اليمن الحارة وصحاري الحجاز الجافة، كما ذاق الأمرَّيْنِ في مواجهة عصابات البلغار والصرب واليونان، فكان عسكريًّا متمرسًا ترقى عن جدارة.

هؤلاء سُرِّحوا من الجيش بجرة قلم دون أية تعويضات أو رواتب؛ فساءت أحوالهم، فلجؤوا إلى صنف المعادين للحكم.

كما انضم إلى هؤلاء طلبة المدارس الشرعية حين قررت الحكومة تطبيق التجنيد الإجباري عليهم بعد أن كانوا معفيين منه.

أما في جمعية الاتحاد والترقي فقد انقسم الضباط إلى قسمين:

- قسم ظفر بمناصب مهمة ومنهم القائم المقام أركان حرب جمال بك (جمال باشا) والبكباشي أركان حرب أنور بك (أنور باشا وزير الحربية والقائد العام للجيش فيما بعد) والبكباشي أركان حرب فتحي بك (فتحي أوقيار) الذين أصبحوا ملحقين عسكريين.

- وقسم عزَّ عليه أن تكون الأسلاب خاصة ببعض دون بعض، ولمّا لم يظفر بأي شيء لجأ إلى المعارضة فتشكلت بذلك لجان المنقذين والمجددين والأرناؤوط، وبدأت كل لجنة تسعى على انفراد للوصول إلى مبتغاها. فكان هذا الوضع فرصة ذهبية للدونمة المتشبعين بروح اليهود الذين تستروا بقناع الثورية لينقضوا على الدولة، فعملوا على توسيع شقة الخلاف بين الحكم والمعارضة وتأزيم الأمور.

أما أبطال الحرية فلم يأبهوا بما يبيته رفاق الأمس، بل سخروا من معارضتهم، وأما الصحافة فقد وقفت إلى جانب المعارضة وصارت توجه الانتقادات إلى الضباط الحاكمين، وبذا بقيت جمعية الاتحاد والترقي مشلولة تجاه

مؤيدي الضباط ومعارضيهم، فلم تتمكن من تثبيت دعائم الحكم، وبدأ ضعاف البصائر من سياسي الجمعية يسلكون طريق التصفية داخل الجمعية وخارجها.

كان الصراع عنيفًا بين الاتحاديين المتطرفين وبين معارضيهم من أنصار الحرية المعتدلين وقد هدد المتطرفون أصحاب الصحف التي ما فتئت توجه الانتقادات إليهم، بسحقهم إذا هم استمروا في انتقاداتهم، ولكن الصحافيين الذين اتخذوا من الحرية مبدءًا يسيرون عليه لم يلتفتوا إلى هذه التهديدات مهما كلفهم الأمر، أما المتطرفون فقد كانوا جادين في تهديدهم فبدأوا بحسن فهمي بك رئيس تحرير جريدة سربستي، فقتلوه ليلة السابع من نيسان عام ١٩٠٩ على جسر غلطة، وألقى القتلة أنفسهم في البحر حيث كان زورق صغير بانتظارهم فلاذوا بالفرار قبل أن تتمكن الشرطة من القبض عليهم، وقد اعتقل عدد من المشتبه بهم، لكن القتلة الحقيقيين كانوا من كبار رجال الجمعية فلم تتمكن التحقيقات من الوصول إلى الحقيقة، وبقي الجناة في منأى من قبضة العدالة، فأحد الجناة هو: أمين الذي كان من الشرطة السرية قبل إعلان الحرية، فالتحق بعدها بالجهاز

السري لجمعية الاتحاد والترقي، أما الآخر فهو وحيد الإسكداري الذي كان محكومًا عليه بالسجن المؤبد فشمله العفو العام، فخرج من السجن ليستأنف جرائمه، وعندما احتلت إستانبول من قبل الإنكليز صار يعمل لحسابهم، فقتل عددًا من المواطنين الذين قاوموا الاحتلال، ولما تحررت إستانبول على يد القوات الوطنية لم ير هذا الجاني بدًّا من الهرب إلى مصر. ولم تمض مدة طويلة من الاغتيال السابق حتى اغتيل صحفي شاب اسمه: أحمد حميم في وضح النهار وعلى ملأ من الناس وقد التجأ الجناة إلى مخفر قريب لا يبعد أكثر من عشرين خطوة من مكان الحادث، كما سرقت خزينة وزارة الأوقاف ولم يقبض على الجناة، أما قتلة زكي بك فهما: ناظم الجركسي وأحمد[١] من فدائي جمعية الاتحاد والترقي.

كان هناك من يعرف القتلة الحقيقيين لكن أحدًا لم يجرؤ على البوح باسم أحد منهم.

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الأول عام ١٩٠٨

---

(١) أعدمهما جمال باشا بدمشق لاغتيالهما زهراب وارتكس أفندي حيث كانا في طريقهما إلى المحاكم الميدانية في وان خلال الحرب العالمية الأولى.

استُدرج ماهر باشا (وهو من رجال السلطان عبد الحميد) من قِبَل موظفين إلى خارج بيته بحجة دعوته إلى اجتماع مهم في وزارة الحربية، ثم قتل في قارعة الطريق، وحكم على الفريق وفيق باشا قائد فرقة الخيالة الأولى السابق، بالسجن لمدة ستة أشهر.

* * *
* *
*

مجلس المبعوثان

بعد إعلان الدستور أصبح القصر العدلي الكائن في حي السلطان أحمد بإستانبول مقرًّا لمجلس المبعوثان، وكانت مساحة الإمبراطورية العثمانية وقتذاك تزيد على ٤ ملايين كم٢ وعدد سكانها ٣٤ مليون نسمة، وإلى جانب ولايات حلب ودمشق وبيروت ومكة والمدينة والحجاز والموصل واليمن وطرابلس الغرب كانت بنغازي وجبل لبنان والقدس متصرفيات مستقلة بينما كانت مصر إقليمًا له استقلاله الداخلي حيث يعين أميرها من قِبَل الحاكم العثماني.

أما في بلاد الروم فقد كان للدولة العثمانية ٧ ولايات وعدد من المتصرفيات تقرر بعد إعلان الحرية أن يكون لكل ولاية ومتصرفة نواب يجتمعون في مجلس واحد للتباحث في شؤون هذه الولايات والمتصرفيات، حيث جرت مناقشات مثيرة واتخذت قرارات مهمة كان لها أكبر الأثر في أحداث ٣١ من آذار وفي مستقبل الإمبراطورية العثمانية.

كانت الأيام تمضي بينما سلبيات نواب الأقوام غير

المسلمة تزيد يومًا بعد يوم وفقًا لمخططات الماسونيين الذين جعلوا من أحمد رضا بك الماسوني رئيسًا للمجلس ليلبّي رغبات حزب الشباب الأتراك من جهة ورغبات الصهاينة من جهة أخرى، وأحمد رضا بك لم يكن تركيًّا خالصًا بل ولد لأبٍ اسمه: علي الإنكليزي من زوجته النمساوية غير المسلمة، وقد عُرِف عنه أنه كان يفتخر بكون أبويه غير مسلمين ويحس بنفسه غريبًا عن المجتمع المسلم حاقدًا عليه، وله دور كبير في توسيع شقة الخلاف بين النواب المسلمين وبين نواب الأقليات، وكذلك في أحداث فتنة ٣١ من آذار، وقد بحث عنه الجنود خلال محاصرتهم لمجلس المبعوثان فلم يجدوه، ولمّا خرج إليهم وزير العدلية ناظم باشا ليهدئهم ظنوه أنه رئيس المجلس أحمد رضا - وكان بينهما شبه - فأجهزوا عليه وقتلوه.

أما رأس الأفعى عمانوئيل قراصو فقد استطاع أن ينفذ إلى جمعية الاتحاد والترقي وبدأ يُسَيِّر سياسة الدولة إلى الوجهة التي يريدها هذا اليهودي الماسوني ومعه جاويد (دونمة) وطلعت باشا وهو الذي أشعل فتيل الفتنة في ٣١ من آذار.

ومن جهة أخرى كان هناك بين النواب العرب من

يسعى نحو الاستقلال عن الدولة، وبسبب عدم معرفتهم اللغة التركية كانوا في معزل عن المناقشات التي تدور في المجلس، ومن هؤلاء عبد الحميد الزهراوي نائب الشام وشفيق المؤيد نائب بيروت اللذان أعدما مع عشرين آخرين بعد أن ثبتت إدانتهما بالخيانة العظمى والاتصال بدولة أجنبية.

وقبل أن ندخل في وقائع أحداث ٣١ من آذار أريد أن أسجل هنا ما قاله الفيلسوف والمفكر التركي رضا توفيق أمام المحكمة وهو يدلي بإفادته حول الحوادث المؤلمة:

« سيدي الحاكم، عفا اللّه عنا، إن سيئاتنا عظيمة جدًّا، ففي الأيام التحضيرية لمأساة ٣١ من آذار أخبرتُ طلعت بك بضرورة تجنب هذه الكارثة، وأوضحت له جسامة الجريمة في إهراق دماء الإخوة، وذكرته بِمَا ستجرّه هذه الأحداث من ردود فعل عنيفة، فأجابني: ليس لنا الخيار، إن الجمعية[١] بحاجة إلى مال ولا يتوفر هذا المال إلا في خزينة قصر يلدز حيث المجوهرات والأشياء الثمينة ».

---

(١) يقصد جمعية الاتحاد والترقي.

هذه الكلمات من رجل شهد الأحداث بكل دقائقها تكفي لإلقاء الضوء على ما خَفيَ وغاب عن المسرح، مع ذلك سنسعى لإيضاح كل الجوانب بكامل الأدلة التي رأيناها رأي العين ولمسناها لمس اليد، سأذكرها للتاريخ وللأجيال القادمة كي تتعظ بهذه الكارثة الأليمة، وتتبين طريقها، إن أحداث ٣١ من آذار امتحان عسكري عصيب بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية العثمانية، ولكن من هم أساتذة هذا الامتحان ومن هم تلاميذه؟ هذا ما لم يسجله مؤرخو اليوم بأمانة وإخلاص، ولا يَعرف هذه المؤامرة إلا من كان تلميذًا في هذا الامتحان العصيب، وقدَّر اللَّه أن أكون أحد هؤلاء التلاميذ.

يقول المؤرخ المرحوم أحمد رفيق بك في كتابه: منظمتان وكارثتان[1] « عندما نتذكر نشيد جيش الحركة بكلماته: (لقد أقسم جيشنا، فاهتزت أرجاء الأرض، ولقيت الأمة البِشْرَ والحُبور، وجاء دور الرخاء والسعادة) لا بد أن نتذكر معه الاتحاديين من الأتراك والأرناؤوط والزط والبلغار والروم،

---

(١) كتاب منظمتان وكارثتان ص٥١، ٥٢.

وكذلك أصوات المدافع والرشاشات ودفع خليفة عثماني خُلع دون أن يكون له أي ذنب في الأحداث، وخزينة دولة نهبها أدعياء الحرية، ولوحات مثبتة على صدور ضباط وجنود أبرياء عُلِّقوا على أعواد المشانق أمام جامع أيا صوفيا بين أشجار الكستناء في أيام نيسان الدافئة.

إنها أيام حالكة السواد، ليت هذا الجيش لم يقسم هذه اليمين وليت هذا الوطن لم يَفْقِد - بسبب هذا القسم - عزَّتَه وشرفَه، إن الاتحاديين هم الذين سببوا كل هذا الويل والشقاء لأمتنا ووطننا ».

إنها قولة حق قالها هذا المؤرخ، فجمعية الاتحاد والترقي (أو إن شئت فقل حزب تركيا الفتاة) هي السبب والمسؤولة عن سلسلة الكوارث والفظائع والمظالم، أما الذي هيأ لهذه الكوارث ووضَع تفاصيلها وموَّلها فهي الصهيونية ومنظماتها الماسونية.

فإنكلترا تسعى لإلغاء الخلافة وتحطيم الإمبراطورية، وإيطاليا وضعت نصب عينها الاستيلاء على ليبيا وإنطاكيا، أما الدونمة فوجهوا أنظارهم تجاه فلسطين، وأما الاتحاديون

فبهرتهم خزينة قصر يلدز فلا بد من ثورة ولا بد من أحداث ٣١ من آذار.

كنا نعتقد بأن جمعية الاتحاد والترقي هي التي أنقذتنا من الاستبداد؛ لذلك انخرطنا في صفوفها وتطوعنا بين فدائييها لا نهاب الموت ولا نعبأ بالمهالك، نطيع الأوامر دون تردد. لكن السياسة المنحرفة التي اتبعتها هذه الجمعية التي قضت على كل المساعي وكل التضحيات.

لقد أعلن الاتحاديون مع إعلانهم الحرية أن النظام الجديد يهدف إلى تنسيق عسكري وإداري في سبيل إزالة رواسب التخلف والركود وإعادة هيبة الدولة بعد أن أزالتها الثورات والحروب والفتن الداخلية، فاعتقد الناس أن جمعية الاتحاد والترقي هي الأمل في هذا المستقبل المنشود.

لكن الذي حدث هو أن أعداء الأمة تغلغلوا في صفوف هذه الجمعية فاستطاعوا جرَّها إلى طريق معوج وسياسة هوجاء، فحدثت كارثة ٣١ من آذار التي جرَّت الاتحاديين ومعها الأمة إلى بلاء عظيم فقُتلت الأمة على أيدي أبنائها.

فرؤوس هذه المؤامرة زينوا لرجال الجمعية طريق

الوصول إلى كنز يستطيعون به أن ينهضوا بالبلاد - على زعمهم - والكنز هو ما جمعه السلطان عبد الحميد عبر السنين من استثمارات ومشاريع وهدايا وتحركات عن أجداده حيث كان يدخرها لأيام عصيبة يمكن أن تمر بها الدولة والأمة، كان هذا مدفونًا تحت بركة ماء في مكان سري من حديقة القصر لا يدري به سوى عبد الحميد وزوجتيه ومصاحبيه جعفر آغا ونادر آغا[١] كما أن هناك أموالاً مودعة في بنوك فيينا تبلغ ٧٠٠,٠٠٠ سبعمائة ألف ليرة ذهبية.

إنه اقتراح جذاب، فبعد اجتماعات عدة ومداولات بين رؤساء الجمعية اتخذ القرار التالي: « العمل على إحداث عصيان مسلح، واغتنام الفرصة للاستيلاء على ثروة قصر يلدز والضغط على السلطان للحصول على موافقته بسحب المودوعات في فيينا، والإنفاق بعد ذلك على المصالح الضرورية في الجيش والإدارة المدنية للنهوض بالبلاد إلى مستوى رفيع، ثم خلع السلطان عبد الحميد وتنصيب ولي العهد محمد رشاد (وهو الرجل المطاوع) » وقد اعترض

---

(١) جاورت هذا الرجل فيما بعد في المسكن فأفشى إليَّ بهذا السر بعد الحوادث بعشرات السنين.

على هذا القرار بعض المتعلقين في الجمعية لكن اعتراضهم ذهب أدراج الرياح.

وبموجب الخطة المدبرة سيستعان بالمشايخ بجعلهم وسيلة لإيقاد نار التعصب، فلا بد أن يكون لدى الجنود (وهم مسلمون متمسكون بدينهم) رد فعل تجاه تصرف مخالف للدين.

ومن جهة أخرى استصدرت جمعية الاتحاد والترقي قانونًا يقضي بتطبيق التجنيد الإجباري لطلبة الطرق الصوفية بعد أن كانوا معفيين منها، فحقد هذا الصنف من الناس على الدولة وتحفز للتعبير عن كوامنه، والأمر اللافت للنظر هنا هو لجوء رؤوس المؤامرة إلى خطة دنيئة وهي إشعال الشرارة الأولى على يد كتائب الرماة التي استخدموها للمرة الأولى في ثورة إعلان الدستور.

كانت هذه الكتائب حققت إعلان الدستور في إستانبول واتخذت الكتيبة الثانية مقرها في سراي بورني[١] أما الكتيبة الثالثة والكتيبة الرابعة فعسكرتا في ثكنة طاش قشلة[٢]

---

(١) حي من أحياء إستانبول مشرف على البحر، ومعناه بالعربية رأس القصر.

(٢) تقع هذه الثكنة في وسط إستانبول وهي الآن كلية الهندسة.

وذلك بغية الحفاظ على النظام الدستوري المفروض على السلطان. ومن أبرز ضباط هذه الكتائب البكباشي رمزي وهو رجل يهودي الأصل صهيوني الهدف.

أما الجنود فكانوا من الأتراك ومن بعض الأرناؤوط ولا شك أنهم بسبب تحقيقهم الثورة الدستورية يَحسُّون بتفوقهم على أقرانهم من أفراد الكتائب الأخرى؛ ولذلك كانت لهم أزياء خاصة عبارة عن خاكي ذي أربعة جيوب.

وبدأت مأساة ٣١ من آذار في ثكنة طاش قشلة وانتهت هناك، أما المؤلفات حول هذا الموضوع فلم تبحث عن هذه الثكنة ولا عن جنودها، إن عدد جنود القوات الخاصة في هذه الثكنة كان عشرة أمثال عدد قوات كتائب الرماة، فأين كانوا أثناء التنفيذ وأي عمل قاموا به؟ هذا ما لم يكتبه أي كاتب في أي مؤلَّف...

* * *
* *
*

كيف بدأت مأساة ٣١ آذار؟

بمناسبة حضور السلطان العثماني لصلاة الجمعة في مسجد يلدز يقام كل أسبوع استعراض عظيم يشترك فيه كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية والبحرية والهندسة مع فرقها الموسيقية.

وفي الجمعة الثانية عشرة من عام ١٣٢٠ رومية، وبعد أن حضرنا الاستعراض في يلدز عدنا إلى ثكنتنا طاش قشلة فوجدنا في كلِّ مهجع شيخًا ذا لحية وعمامة، رأيناهم يلقون دروس الوعظ بين الجنود الذين لم يشتركوا في الاستعراض وعلمنا فيما بعد أن قيادة القوات الخاصة هي التي طلبت منهم هذه الدروس الدينية، كان عدد المهاجع في هذه الثكنة يتجاوز الثلاثمائة، سألنا بعض هؤلاء المشايخ عما إذا تقاضوا أجرًا لقاء هذا العمل؟ فقالوا: بأن موظفين حكوميين قدموا إلى مدارسهم فأعطوا لكل واحد منهم سلفة مقدارها ليرة ونصف وأنهم سيقومون بإلقاء هذه الدروس بالتناوب في ثكنتي طاش قشلة وبك أوغلي.

إن التساؤل هنا: ألم يعلم القادة المسؤولون في هذه الثكنة بهذا الأمر، وهل يعقل أن كل هؤلاء المشايخ يدخلون ويخرجون دون علم من قادة هذه الثكنة، إن الوضع إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الدقة في تخطيط هذه المؤامرة وتنفيذها.

إن عدد جنود القوات الخاص يبلغ عشرة أمثال جنود كتائب الرماة، كانوا يشكلون الفرقة الثانية لهذه القوات بكتيبتها السابعة والثامنة وبالإضافة إلى الفرق الموسيقية وفرق الهندسة والسجن العسكري.

فمخططو المؤامرة كانوا يعلمون اسم كل فرقة وكل كتيبة على وجه الدقة والتحديد، ودليلنا على ذلك أن هذه الفرق دُعيَت يوم ٣١ من آذار إلى اجتماع عام، وكان النداء يتضمن اسم كل فرقة مع ذكر أرقام كتائبها وطوابيرها، ولما اجتمعت الفرق في ساحة الثكنة دقت موسيقى الاستعداد والتحية لجنرال (باشا) لم نره من قبل ولم نعرفه، جاء ومعه عدد من الضباط، وبعد أداء مراسم التحية خطب هذا الباشا قائلًا بأنه سيتلو علينا إرادة سلطانية وبدأ يتلو أمرًا مطبوعًا بأحرف كبيرة مذيَّلًا بختم السلطان كنت قريبًا من مكان وقوف هذا

الباشا سمعت ما قاله الباشا حرفًا بحرف، وإليكم خلاصة هذا الأمر:

« لقد تراءى في أجواء بلاد الروم سحب سُودٌ تهدد مقدرات البلاد، هذه السحب ليست دلائل خير، إنكم يا أبنائي الجنود حراس هذا الوطن. من سواكم يدفع الكيد عن الإمبراطورية التي بناها أجدادنا قبل ستمائة عام وروتها الأجيال بدمائها، ولكي تكون رؤيتكم للعدو واضحة، وأطلب منكم أن تلبسوا قبعة جديدة، لقد أصدر شيخ الإسلام فتوى بجواز لبس هذه القبعة فمن الواجب عليكم إطاعة أولي الأمر.. ».

ثم أخرج الباشا من صندوق كان محمولًا، قبعة تشبه الأنورية، وبعد أن نزع طربوشه لبس القبعة فدقت موسيقى التحية ومرت الكتائب أمامه، وبعد الانتهاء من الاستعراض غادر الباشا ومعيته مكان العرض، كانت الورقة التي تلا محتواها ورقة رسمية مذيلة بتوقيع خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد.

لم يدر بخلد أحد أن هذا الباشا ومن معه أناس مزيفون لبسوا لباس القادة وهيؤوا لهذه المؤامرة وحاكوا خيوطها،

لقد عرفت من بين هؤلاء بهاء الدين شاكر ومدحت شكري وعرناجي الذين التقيت بهم في جمعية الاتحاد والترقي، مع ذلك فالذي تلا الأمر هو باشا، وهل يفكر أحد في أن هذا الأمر من صنع المتآمرين لإحداث الفتنة؟

إن إلباس قبعة لرجل مسلم في ذلك الزمان كان يعني إلقاء شعلة نار في برميل بارود. فمن المؤكد أن تحدث مثل هذه القبعة ردة فعل لدى العسكريين. لقد علمنا فيما بعد أن هذه الهيئة المزيفة ذهبت إلى ثكنة المدفعية في بك أوغلي وفعلت مثلما فعلت في ثكنة طاش قشلة، ثم غابت عن الوجود ولكي يضمن المتآمرون استمرار المؤامرة في الوصول إلى الهدف المنشود بثوا بين الجنود أناسًا جواسيس لبسوا لباس ضباط صف (رقباء وعرفاء) فما إن غادرت الهيئة العسكرية المزيفة الثكنة حتى دب النشاط فيهم، فقام عمر ناجي وصعد عربة عسكرية وبدأ يخاطب الجنود: أيها الإخوة الجنود، اقتربوا مني، لي بعض كلمات أقولها لكم، ألسنا مسلمين؟ ألم يرسلنا آباؤنا وأمهاتنا لخدمة هذه الدين المبين؟ أتدرون ما معنى لبس هذه القبعة في الإسلام؟ معناه أن نخلع عهد الإسلام من رقابنا ونصير كفارًا، فماذا

تنتظرون؟ لقد ضحَّى آباؤنا وأجدادنا بأرواحهم في هذا السبيل، إن الإسلام يُنتزع منكم، ثم خاطب كتيبة الرماة قائلًا: أقول لكم أيها الأبطال: أجئتم بالحرية كي نصبح كفارًا؟ ألم تكن مهمتكم حماية الحرية وحماية الإسلام الذي هو ديننا؟ وكان بقية الجواسيس المنتشرين بين الجنود يطالبون بتنظيم مسيرة إلى مجلس المبعوثان، فَعَلَا الضجيج وكثر الصراخ، ودقت الموسيقى أن حيَّ على السلاح، ولمّا أراد بعض الضباط الوقوف في وجوههم اعتُقلوا جميعًا ووضعوا في مهجع واحد تحت رحمة الحراب.

حدث نفس الأمر بالنسبة لثكنة المدفعية في بك أوغلي، وعجَّت ساحة الثكنة بالجنود، كيف يخطر بالبال أن يقوم نظام يسوق أبناءه إلى الموت في مؤامرة حيكت خيوطها من قبل أعداء الوطن؟

في ذلك اليوم، الثلاثاء ٣١ من آذار مشت الفرقة إلى طريق الجهاد. ولحقتها كتيبتا الرماة الثالثة والرابعة، وكتيبتا القوات الخاصة السابعة والثامنة، وعندما وصل الموكب إلى دولة نعجة قام بعض المحرضين بإطلاق النار من مسدساتهم فاتبعهم الجنود بإطلاق نيران رشاشاتهم.

ولـدى وصـولنا إلـى طـونجانه انـضم إليـنا الجنود الموجودون في هذا المركز كما انضم عدد كبير من المدنيين وسار الموكب نحو جسر غلطة، وعند اقترابنا من الجسر كان الجيش القادم من مركز المدفعية في بك أوغلي قد لحقنا حتى وصلنا إلى يني جامع فاستقبلنا جمع كثيف من طلاب المعاهد الدينية بعمائمهم البيض وهم يهتفون: أترتدون عن دين الإسلام؟ أتلبسون القبعات وتصبحون كفارًا؟ نريد تحكيم الشريعة، نريد تحكيم الشريعة!!! وبعد أن انضم إلينا هؤلاء المشايخ أصبح المشهد خليطًا عظيمًا من العسكريين والمدنيين والمشايخ وكأنه يوم الحشر العظيم. مشى هذا السيل الجارف في سمفونية عجيبة مركبة من أناشيد وطنية وتكبيرات دينية متجهًا نحو ساحة أيا صوفيا ولما وصلنا إليها رأينا الناس قد ملؤوا الساحة حتى تسلقوا أشجار الكستناء الباسقة حتى لكأنهم جراد منتشر، ثم حاصر هذا السيل من البشر مبنى مجلس المبعوثان وسط صيحات المطالبين بالشريعة وأصوات الأذان من فوق الحافلات التي تجرها الخيول. دون أن يدري أحد أية شريعة يطالبون بها وممن يطالبون بهذه الشريعة، ثم سمعنا أصوات بعض الطلقات

النارية وانتشر الخبر أن أحد الذين يريدون جعل المسلمين كفارًا قد قُتل، وتبين فيما بعد أنهم قتلوا شكيب أرسلان بك نائب اللاذقية وأرادوا سحبه بالشوارع وتمزيقه ظنًّا منهم أنه حسين حامد بك أحد محرري جريدة الطنين وهو من يهود سلانيك (دونمة)، ولما علموا خطأهم تركوه. ولما رأى ناظم باشا (وزير العدل) فداحة الخطب، تملكته الجرأة فظهر من إحدى النوافذ وخاطب المتجمهرين قائلًا: أبنائي الجنود إنكم لمخدعون، مخطئون في ظنكم، الشريعة قائمة لم يمسها أحد بسوء، وما كاد يتم كلامه حتى صرخ أحد الناس: اقتلوه إنه عدو الشريعة الأول، وفي هذه الأثناء أصدر أحد الضباط إيعازًا إلى ضابط صف اسمه حمدي جاويش، عندئذ لعلع الرصاص فأصيب ناظم باشا وقتل ظنًّا من الناس أنه أحمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان (ماسوني) فكان ثاني قتيل يقتل خطأ. ثم أمر حمدي جاويش الجنود بالتجمع فسار العسكر مع المشايخ نحو الباب العالي.

وأريد أن أسجل هنا بأن ما كتب حتى الآن عن اشتراك مفارز وزارة الحربية واشتراك المفارز الموجودة في ثكنة

السليمية[١] ولجوء بعض السفن الحربية لهذا السبب إلى ضرب هذه الثكنة بالمدفعية، هو محض خيال، إذ لم تدق أبواق النفير حتى رفعت رايات الاستسلام البيض على أبراج هذه الثكنة فلم تشترك في العصيان أبدًا.

وعند مرور هذا الموكب العاصي من الباب العالي خرَّب المندسون مطابع بعض الصحف ونهبوها، ولم يشترك معهم أي جندي في هذه الأعمال.

وفي الوقت الي جرت فيه هذه الحوادث بساحة أياصوفيا حدثت فتنة ثالثة في سلاح البحرية.

لم يتبع المحرضون نغم الشريعة هنا بل اتبعوا سبيلًا آخر، ادعوا بأن قائد البارجة (إعصار التوفيق) البكباشي علي قيولي حاول تدمير مقر يلدز لقتل الخليفة، كانت هذه التهمة محض افتراء، فقبضوا عليه ووضعوه في قفص داخل عربة نقل واقتادوه إلى قصر يلدز وهم ينشدون الأناشيد الوطنية ويطلقون النار في الهواء كما فعلت كتائب الرماة. وبين هتاف بحياة السلطان وموت الخونة وصلوا إلى مقر يلدز فاصطفوا

(١) هذه الثكنة كائنة في الجانب الآسيوي من إستانبول، وما زالت تستعمل كثكنة عسكرية ومقرًّا لقيادة الجيش الأول التركي. [المترجم].

أمام دائرة الارتباط شاكي السلاح وهم في وضع التحية هاتفين للسلطان. ولما أرسل السلطان بعض مرافقيه ليتنبؤوا الأمر، أجابوهم: إننا ندين بالولاء لمولانا جلالة السلطان جئنا بخائن للوطن هو الآن مكبل في العربة، إنه قائد البارجة إعصار التوفيق كان يهم بتدمير قصر يلدز، قبضنا عليه وهو الآن تحت حراستنا ننتظر أوامر جلالة السلطان. وعندما عاد المرافقون إلى القصر، جاء المتآمرون بشيخ[1] وطلبوا منه أن يدعو بالخير والسلامة، فلمَّا أجابهم بأنه لا يعرف مثل هذا الدعاء قاموا إليه فمزقوا عمامته وجبته وطردوه. وجاؤوا بإمام الطابور الأول التابع للكتيبة السابعة في يلدز الشيخ مراد أفندي وطلبوا منه الدعاء بالخير والسلامة فلما رأى أنه لا منجى منهم دعا للدولة العثمانية ولجيش السلطان، فكان هذا الدعاء سببًا لإعدامه شنقًا فيما بعد.

ظل المتآمرون يصرخون ويهتفون بحياة السلطان حتى ظهر السلطان من نافذة دائرة الارتباط وسألهم عن مطلبهم. تقدم قرب النافذة ثلاثة منهم وبعد أداء التحية قالوا: مولانا إننا نطالب بالشريعة، إن الرجل الذي أتينا به أراد تدمير

---

(١) هو الشيخ صادق أفندي.

قصركم بمدافع بارجته وكذلك إحراق إستانبول، قبضنا على هذا الخائن وجئنا به إليكم. والقرار هو قرار جلالتكم، نطالب بإعدامه.

وعندما طلب السلطان عبد الحميد رؤية على قيولي جيء به فمشى إليه خائر القوى حتى وقف أمامه وبعد أداء التحية قال بصوت مرتعش: عبدكم البكباشي علي قيولي قائد البارجة إعصار التوفيق، أمد اللّه في عمر جلالة سلطاننا. إن شكوى هؤلاء الجنود نابع من جهلهم وعن تحريض مقصود. وكان صوته يخفت من شدة خوفه حتى صار حشرجة غير مسموعة، عندئذ أمر السلطان أن يأخذوه إلى وزارة البحرية لاستنطاقه، ثم أغلقت النافذة. تحلق المتآمرون حول رجال القصر الذين جاؤوا بهذا الأمر ولما علموا به صرخ واحد بينهم إلى أين تأخذونه، سنعاقبه هنا وبدأ يضربه بيديه ويركله برجليه قائلًا: إنه خائن الشريعة، خائن الدين وخائن الوطن، ولما رأى رجال القصر منه ذلك حالوا بينهما وتأبطوا ذراعيه محاولين إنقاذه من بين يديه، فجن جنون العصاة وهجموا عليه، وقام رجل ذو شاربين مفتولين وقامة طويلة اسمه الرقيب سليمان الكرزي وطعن بحربة بارودته بطنَ علي

قيولي ثم صدره وجوانبه فصدرت من علي قيولي صرخة تمزق الأكباد، ووقع على الأرض مضرجًا بدمائه، وحيال هذا الوضع لم يجد رجال القصر بدًّا من النجاة بجلودهم والالتجاء إلى القصر.

لم يبق العصاة في جسم هذا الرجل مكانًا إلا طعنوه بحرابهم ثم ربطوه من رجليه وعلقوه على شجرة في الشارع العام وانصرفوا.

سمعنا بمقتل علي قيولي بهذا الشكل المفجع لدى عودتنا إلى ثكنة طاش قشلة بعد أن كنا في ساحة أياصوفيا. إذن فالذين قُتِلوا هم ثلاثة أشخاص: شكيب أرسلان، وناظم باشا، وعلي قيولي. وقد وجد الضباط المعتقلون في المهجع فرصة فهربوا، فلم يبق في الثكنة نظام أو طاعة، وفي اليوم التالي عاد كل شيء كما كان وكأن شيئًا لم يكن. وفي يوم الجمعة ٣ من نيسان جرى الاستعراض المعتاد لكن الذي لفت النظر فيه هو عدم حضور الضباط الكبار هذا الاستعراض.

وفي هذه الأثناء سرت شائعة في الثكنة تقول أن الجيش

الثالث في سلانيك بعث بطوابير عسكرية تسمى بجيش الحركة وأن هذا الجيش سيقوم بمناورات عسكرية في إستانبول مع أَن المياه عادت في إستانبول إلى مجاريها.

وفي يوم الجمعة ١٠ من نيسان سنة ١٣٢٥ أخذنا الجنود من ثكنة طاش قشلة لإجراء العرض المعتاد، فكان هذا العرض الذي دام ثلاثًا وثلاثين سنة.

لم يجر العرض المعتاد، بل أبلغنا رجال القصر بأن جلالة السلطان يريد أن يتكلم إلينا ببعض الأمور. ذهبت مع من ذهب من الضباط ووقفنا أمامه وأدينا التحية، كان بجانبه قائد القوات الخاصة أحمد مختار باشا ووزير الجيش رضا باشا، خاطبنا عبد الحميد قائلًا ما معناه: بلغوا سلامي إلى أبنائي الجنود الموجودين هنا والباقين في الثكنات وقولوا لهم: إن عساكر من الجيش الثالث التي تسمى الحركة قد وصلت إلى الستيفانوس (بشيل كوى)[1]. إنهم مثلكم أتراك مسلمون. إن ما قرئ في ثكنة طاش قشلة لم يصدر عني مطلقًا، لقد دبره بعض الأعداء، وتبين من التحقيق أنه

---

(١) ضاحية من ضواحي إستانبول، فيها حاليًّا المطار المدني على ضفاف بحر مرمرة.

تدبير سياسي مقصود. لم أصدر مثل هذا الأمر تجاه أمتي أبدًا، لقد حرص الأعداء بهذه الأعمال على تحقيق أهدافهم الخبيثة، فأطلب منهم ألا يصدقوا مثل هذا التحريض وليبقوا في ثكناتهم، ولا يلجؤوا إلى السلاح كما لجؤوا إليه في ٣١ من آذار وقد أمرتُ القادة بإجراء ما يلزم (وأشار إلى القادة الموجودين بجانبه).

لو أمر السلطان عبد الحميد القوات الخاصة المعسكرة في إستانبول بمهاجمة جيش الحركة والدفاع عن المدينة لكانت فاجعة ٣١ من آذار ضربة قاضية على الجيش العثماني بأكمله.

لكن عبد الحميد لم يفعل شيئًا من هذا القبيل واستسلم للقدر، أَبْلغْنَا جنودنا أمر السلطان، ولم تجر المراسيم المعتادة فجاء السلطان إلى المسجد، وبعد قليل أَبْلَغَنَا مرافقوه عدم الانتظار والعودة إلى الثكنات.

مرت أزمة ٣١ من آذار ومضى أسبوع واحد لم يسجل خلاله أي حادث جدير بالذكر.

الأمر اللافت للنظر هو غياب كل ضباط كتائب الرماة

عن الثكنة، كان المتآمرون قد أبعدوهم جميعًا، وهذا من الأدلة الدامغة على أن هذه الحوادث من صنع المتآمرين بدقة وإحكام.

لم يبق من الضباط الكبار في الثكنة سوى ضابط واحد هو قائد الكتيبة السابعة الأمير لاي إسماعيل حقي. وقد دق نقير الاجتماع فاجتمع الضباط والجنود في ساحة الثكنة فخاطبنا هذا القائد قائلًا: أيها الجنود، هناك شائعات تسري، إنها محض أكاذيب يطلقها من لهم أهداف وغايات سياسية معينة، والحوادث التي جرت في ٣١ من آذار هي ثمرة الأهداف والغايات. سيعود إليكم من غاب من ضباطكم. إن الطاعة في الجندية هي الأساس، أبلغكم بأمر صاحب جلالة المقام الرفيع، إن ما جرى في ٣١ من آذار لا يليق بالشرف العسكري وليس له مكان في ديننا. أدعوكم لأن تقسموا أمامي بألا تلجؤوا إلى أي حركة لأي سبب من الأسباب دون أن تتلقوا أمرًا، أتقسمون؟ فهتف الجميع نقسم باللّٰه العظيم على ذلك.

كان الطابور الأول من ثكنة طاش قشلة تشغله كتائب الرماة والاستحكام أما الطابور الثاني فلجنود القوات

الخاصة، أما حراسة الأبواب النظامية ومخزن الأسلحة فيتناوب فيها جنود القوات الخاصة وليس للرماة أية مناوبة على حراسة الثكنة.

وفي ليلة العاشر من نيسان أحس الرماة بوجود شيء ما يحوم حولهم، فعمدوا إلى حراسة المخزن فجردوهم من أسلحتهم وكسروا أقفال المخزن ونقلوا العتاد كله إلى مهاجعهم، وعلم القائد بالخبر فاستنفر القوات، لكن الرماة الذين سدوا جميع المنافذ هددوهم بإطلاق النار إن هم اقتربوا منهم، وفي هذه الأثناء جاء ضباط الصف المناوبون بخبر جديد مفاده: أن عناصر أجنبية يلبسون قبعات بيضاء، ويرتدون أزياء غريبة يحفرون مرابض لهم تجاه الثكنة من جهة مستودع المحروقات.

فلما علم القائد بالنبأ أمر بالتريث حتى يصبح الصباح فيظهر الوضع جليًّا، ولم تمض ساعة على هذا الوضع حتى لعلعت أصوات المدافع الرشاشة قرب الباب الرئيسي.

أغار جبش الحركة على الثكنة ففتح الرماة نيران أسلحتهم لصد هذا الجيش، فلما سمعوا أصوات الرصاص هرعوا إلى خارج الثكنة دون أن يعلموا بما جرى، فقابلهم جيش

الحركة بالرشاشات المتمركزة في مقبرة الأرمن فأبادهم عن بكرة أبيهم.

وخلال الاشتباكات التي بدأت قبل الفجر من يوم السبت ١١ من نيسان واستمرت حتى الظهر دمرت قنابل المدفعية الباب الرئيسي وجزءًا من الطابق الثاني، وبعد قليل تهدمت المهاجع على رؤوس جنود الاستحكام فماتوا جميعًا تحت الأنقاض.

استمرت الاشتباكات حتى عصر ذلك اليوم فكانت مدافع بك أوغلي تتراشق النيران مع مدافع الحربية، وفي هذه الأثناء حاول قائد الكتيبة السابعة إسماعيل حقي ثني الرماة عن موقفهم فلم يفلح فأمرنا أن نلف غطاءً أبيض بعصا ونرفع راية الاستسلام على نافذة من نوافذ الطابق العلوي لعلهم يوقفون القصف وتهدأ الحالة. فنفذنا ما أمر، وفعلًا توقفت طلقات الأسلحة، فكتب القائد كتابًا أرسله مع أحد الضابط إلى القوات المهاجمة، وكانت الاشتباكات متوقفة تمامًا.

ومن الباب النظامي المتهدم ظهر البكباشي أنور بك (بطل الحرية أو أنور باشا فيما بعد) وبيده مسدس ومعه عشرة من رفاقه ومن ورائهم جنود ذوو ألبسة غريبة تبين

فيما بعد أنهم من عصابات البلغار، كان مع أنور رجل طويل القامة ذو لحية صفراء اسمه ساندانيسكي (قائد الثورة المكدونية). وأول عمل قاموا به هو تجريد من بقي حيًّا من كتائب الرماة من سلاحهم وقتلهم جميعًا بحراب أسلحتهم. أما القائد إسماعيل حقي فتقدم من البكباشي أنور قائلًا: أي بني بارك اللّٰه بكم، لم أستطع أن أثني الرماة عما فعلوا، لقد أقسموا بالأمس، لكنهم نقضوا أيمانهم، فكسروا باب مخزن الأسلحة وسببوا هذه الحادثة. أما أنور بك فلم يجبه بل مشى إليه وأشبعه ركلًا وضربًا ثم نتف لحيته البيضاء فانفجر القائد غاضبًا وصرخ والدماء تكاد تتفجر من عينيه: أيها الوقح، لقد أثبتَّ بعملك هذا سوء أدبك وخلقك، وبصق في وجهه ثم أردف: إنك لم تُقِم للشرف العسكري وزنًا، أسفي عليك وأنت تحمل رتبة ضابط تركي لم أعرف أنك أحط من أي جندي عادي، إن فعلك هذا لا يفعله حتى العدو الذي لا يمس من استسلم بسوء. إنني أشك في عقيدتك والدماء التي تجري في عروقك لو لم تكن دنيئًا لما أهنت من هو من قومك أمام هؤلاء (وأشار بيده إلى البلغار). ثم وقع مغشيًّا عليه.

لما رأى أنور بك هذا الجواب الذي استحقه من القائد التركي أمر عصابات البلغار أن يقيدوا هذا الضابط الشهم فقيدوه فأطلق هو وثلاثة من رفاقه النار عليه فقتلوه ثم دار بوجهه إلى ساندانيسكي وتمتم: أما كان مستحقًّا لهذا الجزاء!

جُرِّد بقية الجنود من السلاح ووضعوا في مهجع نادوا عليهم واحدًا بعد واحد قتلوهم جميعًا، فامتلأت ساحة الثكنة بالأشلاء، وكأنها مسلخ المدينة، ثم أمروا القلة القليلة - فكنت أنا منهم - بدفنهم. فحفرنا لهم حفرًا في مقبرة الأرمن فدفنا زملاءنا بأيدينا تحت تهديد السلاح، هذه المقبرة الجماعية هي الوثيقة الأصلية التي تثبت بشاعة وفظاعة جريمة ٣١ من آذار فليذهب المؤرخون ولينظروا بشيء من الإنصاف والحياد.

إن الفاجعة التي ألمت بنا ورأيناها بأم أعيننا في ثكنة طاش قشلة مخيفة مرعبة لم تشهد مثلها محاكم التفتيش، لقد أذاق أبطال الحرية الجيش التركي صنوفًا من التقتيل والتعذيب لم تفعله الوحوش. لقد مشى بطل الحرية أنور بك أمام أعدائه الذين يريدون إزالة أمته من الوجود فقتل أبناء جلدته وطعنهم بأيدي الأعداء، لا بد أن التاريخ سيحكم عليه يومًا،

وإن لم يحاكمه أولياء الجنود الذين أرسلوا أصلًا للدفاع عن هذا الوطن، فانتظروا رجوعهم إلى بيوتهم سنين طويلة دون جدوى، إن ضحايا هذه الكارثة لم يدفنوا حتى في مدافن المسلمين بل غُيبوا في التراب في مقبرة آغوب الأرمني.

انتهت المذبحة على النحو المذكور، قام بعد ذلك رئيس عصابات البلغار ساندانيسكي ورجاله برفقته أنور بك بالإغارة على قصر يلدز، فقدّم أنور بك قصر الإمبراطورية العثمانية بتاريخها العريق نهبًا لعصابات العدو، ولقد كان تخطيطهم يقضي بإحداث فتنة ٣١ من آذار، وإسقاط عبد الحميد، والحصول على الخزينة وعندما لم يجدوا الخزينة قبضوا على المصاحب الأول جوهر آغا واستعملوا معه أبشع أنواع التعذيب فصرخ في وجههم: بأنه لن يخون ولي نعمته، فوضعوا حبل المشنقة في عنقه وأعدموه. وبادروا إلى المصاحب الثاني نادر آغا وعذبوه مثل سلفه وهددوه بالإعدام، فلم يستطع الصمود فدلهم على مكان الخزينة وأنقذ روحه.

لقد جاورت نادر آغا فيما بعد فأفشى إلي بهذا السر في معرض حديثه عن الأحداث التي تعرضنا لها وذقنا منها الويلات.

لم تكن للسلطان عبد الحميد أية علاقة بأحداث ٣١ من آذار، وبالرغم من حسن النية التي أظهرها والحياد الذي وقف فيه، فإن الأحداث تطورت ضده، وقد أظهر أنور بك (صهر العائلة المالكة ونائب القائد العام فيما بعد) مهارته في نهب خزينة القصر أمام عيني السلطان الذي جمع المال عبر السنين الطويلة لينفقه على أمته في الأيام العصيبة، وذلك على أيدي عصابات الروم والبلغار، مع ذلك لم يكن ذلك المال بالمقدار الذي حلمت به جمعية الاتحاد والترقي. كما قام أنور بك في قصر يلدز بمذبحة شبيهة بمذبحة طاش قشلة إذ أباد مفرزة تابعة لشوكت باشا عن بكرة أبيها. كما تعرض بالإهانة للفريق ممدوح باشا القائد التركي المرموق الذي خدم الجيش العثماني مدة سبعة وأربعين عامًا ثم نزع سيفه وأرسله إلى قائد جيش الحركة محمود شوكت باشا، فلما رأى الباشا هذا التصرف غير اللائق اعتذر منه وأعاد لممدوح باشا سيفه.

أعلنت الأحكام العرفية في إستانبول ومنع التجول بعد أذان المغرب وتوقفت المواصلات بين شطري المدينة.

وفي اليوم التالي أُخذتُ مخْفورًا مع ثلاثة من زملائي

إلى سجن باكير آغا فوجدنا هناك كثيرًا من الناس يقدمون إلى المحاكمة، فمن ثبت تواجده في ساحة أيا صوفيا يوم العصيان أعدم شنقًا أو رميًا بالرصاص، وقد كنا مطمئنين إلى أننا ضباط غير مسلمين، من الفرقة الموسيقية، لكن الحكم الذي صدر بشأننا لم يراع كوننا غير مذنبين فنزعت منا الرتب العسكرية وأخذنا إلى منطقة نائية للعمل في مخيم للأشغال الشاقة مدة ستة أشهر.

والآن نقول: لحساب من أحدثت مأساة ٣١ من آذار؟ من هم وراء هذه الفتنة؟

لقد تبين من التحريات الجارية بعد إخماد الفتنة أنه ضبط في بيت سعيد باشا القبرصي - المعروف بتبعيته للإنكليز - النسخ الأصلية لكل المقالات الرئيسية التي نشرتها جريدة البركان السرية، وقد سُلِّمت الوثائق إلى رئاسة المحكمة العرفية لكن أحدًا لم ينبس ببنت شفة في هذا الموضوع، لقد ثبت بما لا يقبل الشك أن وكالة الاستخبارات الإنكليزية هي التي كانت وراء هذه المؤامرة.

* * *

خلع السلطان عبد الحميد

بعد المؤامرة التي نفذت في ثكنة طاش قشلة ونهب قصر يلدز من قبل عصابات البلغار بمعرفة أنور باشا أمام عيني السلطان اجتمع أركان جيش الحركة بأعضاء المجلس الملكي الذي شكله مجلس المبعوثان وقرروا خلع السلطان عبد الحميد بعد استصدار فتوى من شيخ الإسلام.

وفي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩ اجتمع ٢٤٠ عضوًا من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرر بالاتفاق خلع السلطان عبد الحميد.

كتب مسودة الفتوى الشيخ النائب حمدي أفندي المالي لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دُعيَ للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه إن لم يُجْرَ تعديل عليها، وأيده في التعديل عدد من أنصاره من النواب فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس المبعوثان عرض التنازل عن العرش أو خلعه.

وإليكم نص الفتوى ذات الوجهين الموقعة من قبل شيخ

الإسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع:

إذا قام إمام المسلمين (زيد) فجعل ديدنه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية، وجمع الكتب المذكورة والتبذير والإسراف من بيت المال وإنفاقه خلاف المسوغات الشرعية، وبقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه، ثم عاد فحنث وأصر على إحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعًا، فلوحظ أن في بقائه ضررًا محققًا وفي زواله صلاحًا فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم.
الجواب: نعم. يجب.

التوقيع

كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين

عفا اللّه عنه

قرئـت هـذه الفتوى العجيبة فـي الاجتماع المشـترك للمجلس الملِّي فصرخ النواب الاتحاديون: نريد خلعه، نريد خلعه، في هذه الأثناء قام سعيد باشا الصغير - الذي رباه عبد الحميد وهو صغير فخانه بعدما كبر - وهو على كرسي رئاسة المجلس وقال: أيها السادة، هل توافقون على هذه الفتوى الشرعية التي تقضي بخلع السلطان عبد الحميد الثاني من الخلافة والسلطنة؟ ولما كثرت الهمهمات بينهم طلب من الموافقين الوقوف، فوافق المجلس على الخلع.

بعد استقالة حسين حلمة باشا من رئاسة الوزراء في ٣١ من آذار كان توفيق باشا قد عيّن خلفًا له، وفي جلسة المجلس الملِّي دُعيَ إلى حضور الاجتماع وطلب منه تبليغ قرار الخلع إلى الخليفة، لكنه كان مدركًا للأمور إدراك المجرِّب الحكيم فاستطاع التخلص من هذه المهمة الكريهة قائلًا: إن قرار النواب يجب أن يبلغه النواب أنفسهم، فانتخب الاتحاديون وفدًا لن ينساه المسلمون ولن ينساه التاريخ أبدًا، إنه وفد يندَى لذكره الجبين.

لقد ضم الوفد أرام أفندي الأرمني، والفريق البحري عارف حكمت باشا، وعمانوئيل قره صو اليهودي نائب

سلانيك والعدو الأول للإسلام ومدبر المكائد للقضاء على الخلافة الإسلامية، وأسعد طوبطاني الأرناؤوطي الذي خان النعمة وخان الوطن.

كان المفروض أن يقوم بتبليغ قرار خلع سلطان عثماني مسلم خدم الدولة والأمة أكثر من ثلاثة وثلاثين عامًا، وفدٌ مسلم.. لقد لطخ الاتحاديون بفعلهم هذا ليس تاريخ عبد الحميد فحسب بل التاريخ العثماني بأكمله بالعار!!

قدم هذا الوفد إلى السلطان عبد الحميد فوجدوه واقفًا على قدميه هادئًا متين الأعصاب. فلما قرأ عارف حكمت باشا الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام ضياء الدين أفندي، أجاب السلطان عبد الحميد جواب المؤمن الواثق بربه ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ عندئذ تقدم أسعد طوبطاني الأرناؤوطي قائلًا: لقد عزلتكم الأمة، فغضب عبد الحميد وقال: تقصد أن الأمة خلعتني، لا بأس، ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي[1] إلى مقام الخلافة؟!!

وبعد أن أزيح السلطان عن سدة الخلافة والسلطنة أُرسل

(١) قصد بذلك اليهودي عمانوئيل قره صو.

في يوم ٢٨ من نيسان ١٩٠٩ مع ثلاثة من نسائه، وأولاده عبد الرحيم ومحمد وعابد وبناته شادية وعائشة ورافعة، وبعض الخدم والمرافقين إلى سلانيك ووضع في قصر الاثبتي الصيفي تحت حراسة فدائيي الاتحاد والترقي، ولما اندلعت حرب البلقان جرى نقله مع حاشيته إلى قصر بكلربكي في إستانبول بعد توسط صديقه القديم الإمبراطور الألماني ويلهلم الثاني، وتوفي في هذا القصر فجرى لجنازته احتفال مهيب ودفن في مقبرة السلطان محمود بإستانبول.

رحمه اللّه رحمة واسعة،

وأسكنه فسيح جناته

* * *
* *
*

رقم الإيداع

٢٠١٢/٤٦٠٤

الترقيم الدولي **I. S. B. N**

978 - 977 - 214 - 027 - 5

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « يهود الدونمة وأسرار الانقلاب العثماني »

ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب: ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

- **ما رأيك في سعر الكتاب ؟** ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- **هل صادفت أخطاء طبعية في أثناء قراءتك للكتاب ؟**

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء طبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

....

....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

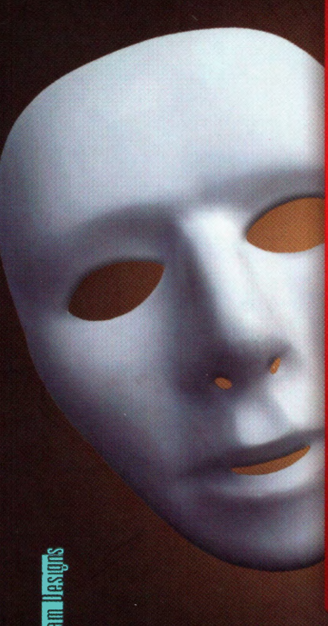
عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

الكتاب في سطور



لعبت فرقة يهود الدونمة دورًا رئيسيًّا في إضعاف الإمبراطورية العثمانية، حيث أظهروا الإسلام، وعاشوا في زي ذوي الهويتين اليهودية والإسلامية حتى دخلوا في عمق الخلافة واستطاعوا تأسيس جمعيات سرية للقضاء على الخلافة الإسلامية، ثم اشتركوا في تأسيس الدولة العلمانية التركية، وكان هدف إلغاء الخلافة الإسلامية جامعًا بين اليهودية والاستعمارية والصليبية لأجل أن يضربوا المسلمين ضربة قاصمة تتمزق بعدها وحدتهم، ويتهدم كيانهم، ويفقدون في العالمين عزتهم وكرامتهم، ويتقلص في الأرض ظلهم وامتدادهم.

Dar-Alsalam Designs

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

